المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

النقد الثقافي ودعوى موت البلاغة العربية
دراسة في نقد النقد

Cultural Criticism and the Claim of the Death of Arabic Rhetoric A Study in Criticism of Criticism

بقلم الدكتور

محمد عبد الفتاح إبراهيم النجار

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات بالإسكندرية ـ جامعة الأزهر ـ جمهورية مصر العربية

الترقيم الدولي/ 9050 - 2356

العدد الثاني من إصدار ديسمبر ٢٠٢٤م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

النقد الثقافي ودعوى موت البلاغة العربية
دراسة في نقد النقد

محمد عبد الفتاح إبراهيم النجار

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية ، الإسكندرية ، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني: mohammedelnggar.419@azhar.edu.eg

الملخص

يُعدُ النقد الثقافي من الاتجاهات النقدية الحديثة التي انتشرت وطار ذكرها في الآفاق، وأثارت جدلًا كبيرًا في الأوساط النقدية، ويذهب المروجون له في وطننا العربي إلى أنه نمط جديد يتجاوز البحث عن جماليات النص، لينفذ إلى الأنساق الثقافية المضمرة داخل البناء اللغوي؛ ولذلك استدعى هذا النوع النقدي المُحدَث أن ينهل من روافد معرفية متعددة، نحو: علم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم العلامات، وعلم الجمال التحليلي الفلسفي، وغيرها من المعارف.

وقد تبنى عدد غير قليل من الأكاديميين والنقاد العرب نشر هذا الاتجاه النقدي الجديد، وقد حمل لواء هذا التوجه الدكتور عبد الله الغذامي، فقد نادى بضرورة استقبال هذا الوافد الغربي؛ ليحل محل النقد الأدبي والبلاغة العربية؛ لأنه يرى أن البلاغة قد بلغت سن اليأس، واحترقت، ولا داعي لتذكرها؛ لأنها صارت علمًا ميتًا لا جدوى من دراسته، كما يرى أن البلاغة قبح؛ لأن خطابها يخفى خلفه شيئا آخر غير الجمالية، وليست الجمالية إلا أداة تسويق وتمرير لهذا المخبوء، وتحت كل ما هو جمالي هناك شيء نسقي مضمر، ويعمل الجمالي عمل التعمية الثقافية لكي تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت قناع.

ويتناول هذا البحث بالفحص والنقد دعوى موت البلاغة التى أطلقها الدكتور الغذامي؛ لكي نتمكن من الحكم عليها بموضوعية وشفافية، ويتجلى لنا موقف الغذامي؛ ونستطيع الإجابةعن هذا السؤال:هل كان الغذامي منصفًا في دعواه، ومعتمدًا على منهج علمي رصين قوامه الأدلة والبراهين، أم كان مقطوعًا عن تراثنا العربي، يغلبه هواه، ويُخضِعه حبه للثقافة الغربية، وانبهاره بكل منجز نقدي غربي.

الكلمات المفتاحية : النقد الثقافي، البلاغة العربية، النقد الأدبي، عبد الله الغذامي.

Cultural criticism and the claim of the death of Arabic rhetoric A study in criticism criticism

Muhammad Abdel Fattah Ibrahim Al-Najjar
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arab Studies, Alexandria, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Email: mohammedelnggar.419@azhar.edu.eg

Abstract

Cultural criticism is considered one of the modern critical trends that has spread and is widely mentioned, and has sparked great controversy in critical circles. Its promoters in our Arab world believe that it is a new style that goes beyond the search for the aesthetics of the text, to penetrate the cultural patterns implicit within the linguistic structure. ; Therefore, this modern critical type required drawing from multiple streams of knowledge, such as: psychology, sociology, anthropology, semiology, philosophical analytical aesthetics, and other knowledge.

Quite a few Arab academics and critics have adopted the dissemination of this new critical trend, and the banner of this trend was carried by Dr. Abdullah Al-Ghadhami, who called for the necessity of receiving this Western newcomer. To replace literary criticism and Arabic rhetoric; Because he believes that eloquence has reached menopause and has burned out, and there is no need to remember it. Because it has become a dead science, there is no point in studying it. He also believes that rhetoric is ugliness; Because its discourse hides something other than aesthetics behind it, and aesthetics is nothing but a marketing tool and passing on this hidden thing, and beneath everything that is aesthetic there is something implicitly systematic, and the aesthetic works the work of cultural obscuration so that the patterns remain effective, influential, and sustainable under a mask.

This research examines and criticizes the claim of the death of rhetoric launched by Dr. Al-Ghadhami. So that we can judge it objectively and transparently, and make it clear to us Al-Ghadhami's position: was he fair in his claim, and based on a solid scientific approach based on evidence and evidence, or was he cut off from our Arab heritage, dominated by his whims, and subordinated to his love for Western culture, and his fascination with every Western critical achievement.

Keywords: cultural criticism, Arabic rhetoric, literary criticism, Abdullah Al-Ghadhami.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على سيدنا وحبيبنا ونور قلوبنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، اللهم صل عليه في الأولين وفي الآخرين وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين، اللهم صل على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، وزكنا وإياكم بالصلاة عليه أفضل وأكثر مما زكيت أحدًا من أمته بالصلاة والسلام عليه، وبعد...

فمن يتابع المشهد النقدي والثقافي في الوقت الراهن يلحظ تعرض البلاغة العربية لانتقادات وهجمات شرسة متنوعة، تتزايد يومًا بعد يوم، ففي رحاب التطور التكنولوجي الهائل، وفي ظلال الانفتاح الكبير على الثقافات الغربية تتلاحق الطعنات، وتتعدد الهجمات على بلاغتنا العربية، فتارة تأتي الطعنات في جوهرها، والتشكيك في علمائها، وتارة أخرى يأخذ الهجوم شكل اتهامات برجعيتها، وعقمها، وجمودها، وعدم قدرتها على التفاعل مع التحولات الفكرية والنقدية التي طرأت في العصر الحديث، وعدم تمكنها من مواجهة الأسئلة العميقة التى يطرحها النقد الحديث، خاصة في ظل انتشار النظريات النقدية التى ظهرت في مرحلة ما بعد الحداثة مثل: البنيوية، والتفكيكية، والنقد النسوي، والنقد الثقافي.

ولعل من أبرز المناهج النقدية الحديثة التي انتشرت في وطننا العربي في السنوات الأخيرة(النقد الثقافي) فقد فرض نفسه بقوة على الدراسات الأدبية والنقدية والثقافية، وهو منهج لا يكترث بدراسة النص دراسة أدبية من حيث اللغة والأسلوب والصور...، بل يتجاوز ذلك ليبحث عن العلاقات بين النصوص والبنى الثقافية والاجتماعية التى أنتجها، فهو ينظر إلى النصوص الأدبية بوصفها منتجات ثقافية تعكس القيم، والهويات، والبنى الاجتماعية السائدة في المجتمع.

والنقد الثقافي منتج غربي، كان لنشأته ظروف خاصة عقب الحرب العالمية وبداية عصر النهضة الأوربية، فبعد أن تيقن الغربيون أن النقد الأدبي في زمن

الحداثة وما بعدها كان وهمًا كبيرًا، وبعد أن أبصروا ما خلّفه المنهج البنيوي من إشكاليات عديدة، وصرامة وانغلاق في التحليل اللغوي، وإقصاء وتهميش لكافة الأبعاد السياقية، وبعد أن لاحظوا كيف صار النقد يأكل بعضه بعضًا، وكيف تأتى كل نظرية حديثة لتهدم ما شُيد قبلها من نظريات، فلا بناء، ولا تطوير، في هذا الوقت أصبحت الفرصة سانحة في أوروبا لظهور النقد الثقافي كمحاولة جادة لتحرير النصوص من الانغلاق الّذي فُرِضَ عليها من قِبَلِ المنهج البنيوي الذي أدى إلى قطع النص عن محيطه، فإعادة النص إلى محيطه الثقافي كان رغبة ملحة عندهم، والنقد الثقافي بمجالاته المتنوعة ووفرته المنهجية يلبى تلك الرغبات؛ لاستيعابه مجالات متعددة، نحو: نظرية الأدب، والعلوم الاجتماعية والإنسانية، وعلم الجمال...إلخ.

وقد تبنى الدكتور عبد الله الغذامي مشروع النقد الثقافي بمفهومه الغربي، وسعى لنشره والترويج له في وطننا العربي، ونادى بضرورة إحلاله بديلًا منهجيًا عن النقد الأدبي والبلاغة العربية؛ لأنه يرى أنهما قد بلغا حد النضج، ووصلا سن اليأس، وليس فيهما أي أداة نقدية صالحة للتوظيف تتناسب مع متطلبات المتغيرات المعرفية والثقافية الضخمة الذي يشهدها العالم في هذا الوقت الراهن.

ولم بتوقف الدكتور عبد الله الغذامي عند هذا الحد، بل بالغ وتجاوز حتى ادعى أن النقد الأدبي والبلاغة العربية هما السببان الأساسيان فيما نحن من حالة العمى الثقافي؛ لأن العيوب النسقية المختبئة تحت عباءة الخطاب الجمالي ظلت تتنامى متوسلة بالجمال الشعري والبلاغي، حتى صارت نموذجًا سلوكيًا يتحكم فينا ذهنيًا وعمليًا، وحتى صارت نماذجنا الراقية – بلاغياً – هي مصادر الخلل النسقي. واستشهد لذلك بشعر أبي تمام والمتنبي وأدونيس ونزار قباني، فهم في نظره أمثلة على الجمال الشعري، وأيضاً أمثلة على الخلل النسقي.

كما ذهب الغذامي إلى أن جمال البلاغة قبح؛ لأنها تبحث فى قضايا الجمال بنوع من العمى الثقافي التام، كما أنها تضلل القارئ، وتقوم بتمرير العيوب النسقية

المختبئة تحت عبائتها الجمالية؛ لذلك أعلن احتراق البلاغة وموتها، لأنها صارت عِلمًا ميتًا لا جدوى من دراسته، ونادى بضرورة إحلال النقد الثقافي محلها.

من أجل ذلك عقدت العزم في هذا البحث على فحص ونقد تلك الدعوى التى أطلقها الغذامي؛ لكي نتمكن من الحكم عليها بموضوعية وتجرد، بعيدًا عن أي تأثير عاطفي، أو حُكم جاهز مسبق.

أما عن الدراسات السابقة فلم أعثر على دراسة خاصة عُنِيَت بالرد على دعوى موت البلاغة التى أطلقها الغذامي، فجلها يدور حول الموقف من النقد الثقافي بين القبول والرفض، ومن أهم تلك الدراسات:

-النقد الثقافي: قراءة في المصطلح والمفهوم: بوطغان رتبة، بحث منشور في مجلة مختبر اللغة والتواصل الصادرة عن المركز الجامعي بغليزان، الجزائر، المجلد الخامس، العدد الثالث، ديسمبر ٢٠١٩م.

-قراءة نقدية في نظرية النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي: طارق بوحالة ، بحث منشور في حوليات جامعة قالمة للّغات والآداب، العدد الخامس عشر، عام ٢٠١٦م.

-النقد الثقافي: إشكالية المصطلح والمفهوم: بونوة خيرة، بحث منشور في مجلة مختبر اللغة والتواصل الصادرة عن المركز الجامعي بغليزان، الجزائر، المجلد الخامس العدد الثالث، ديسمبر٢٠١٩م.

هذه الدراسات وغيرها لم تُعن عناية خاصة بموقف النقد الثقافي من البلاغة العربية، وهذا ما عمل البحث على العناية به وفحص ونقده.

وقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي الذي حاولت من خلاله تتبع تلك الدعوى وفحصها ونقدها من أجل تقديم رؤية واضحة تتسم بعمق التحليل ودقة النتائج.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون يكون في تمهيد ومبحثين وخاتمة:

–التمهيد: خصصته للحديث عن المداخل التأسيسية للبحث، حيث الحديث عن مفهوم النقد الثقافي، ودعوى موت البلاغة: نشأتها وتطورها، بدءًا من الاستهانة بالتراث البلاغي، انتهاءً بإعلان موتها على لسان الدكتور عبد الله الغذامي.

– **المبحث الأول: (النقد الثقافي ودوافع التأسيس على أنقاض البلاغة العربية)** رصدت فيه الأساب والدوافع التى أوردها الداعون لنشر النقد الثقافي في وطننا العربي، محاولين من خلالها إثبات أن البلاغة العربية لم تعد قادرة على مواكبة التطورات الفكرية والثقافية في العصر الحديث؛ نظرًا لما يزعمونه من محدودية نظرها، وعدم عنايتها إلا بالجوانب الشكلية والجمالية للنصوص فقط، وتجاهلها للأبعادها الثقافية والاجتماعية.

– **المبحث الثاني: (دعوى موت البلاغى العربية – تحليل ونقد)**

ناقشت فيه تلك الدعوى التى أثارها الدكتور عبد الله الغذامي ومن حذا حذوه، محاولًا إلقاء الضوء على عناية البلاغيين والنقاد العرب القدماء بالأنساق الثقافية والفكرية للأمة العربية في ضوء سياقها التاريخي، كما ناقشت فيه قولته الشهيرة: (جمال البلاغة قبح) مبرزًا ما تحويه هذه الجملة الخطيرة من اضطراب وتناقض ثقافي ومعرفي.

ثم ختمت بحثي برصد أهم ما توصلت إليه من نتائج وما اقترحته من توصيات، وبعد... فلا أزعم أنني جئت بالنادر المبتكر، بل هو جهد المقل، وخطوة على الطريق، في سبيل نهضة بلاغية مرجوة، فإن أصاب هذا البحث مرماه فذلك ما سعيت إليه جاهدًا ، وإن أخطأ هدفه فهو جهد الضعيف ، يُعرَضُ له التقويم ، وبناله الإصلاح والتهذيب، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيد: (مداخل تأسيسية)

أ- النقد الثقافي:(المفهوم والمطلح):

يُعدُ النقد الثقافي من الاتجاهات النقدية الحديثة التي انتشرت وطار ذكره في الآفاق في السنوات الأخيرة، وهو اتجاه يدعو إلى نقد جديد يتجاوز البحث عن جماليات النص، لينفذ إلى الأنساق الثقافية المضمرة داخل البناء اللغوي، وقد استدعى هذا النوع النقدي المُحدَث أن ينهل من روافد معرفية متعددة، نحو: علم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم العلامات، وعلم الجمال التحليلي الفلسفي، وغيرها من المعارف.

فالنقد الثقافي " إجراء عملي تطبيقي، لا يستند على تنظير معرفي مستقل بذاته، وإنما يعتمد في إجراءاته التطبيقية على كل ما هو متاح من نظريات ومفاهيم فلسفية، واجتماعية، ونفسية، وسياسية، وعلمية، ويقوم بتطبيقها على الفنون الراقية والمبتذلة بلا انتقاء أو نخبوية، من أجل كشف الطاقات والأنظمة الثقافية والإشكالات الإيديولوجية، وأساليب الهيمنة والسيطرة المختزلة في النصوص برمتها: الراقية أو الشعبية، حتى تتبدى الكيفية التي بها تتشكل الأبعاد والجوانب للوعي الفردي، والتاريخ الإنساني"[١]؛ فالنقد الثقافي ليس مجرد نظرية نقدية جديدة محددة الملامح، وإنما هو صيرورة طويلة تمتد لأكثر من قرن من الزمان[٢]، وعملية مثاقفة فكرية بالغة التشابك والتعقيد بين كثير من المناهج والمعارف والمقاربات والعلوم، تبلورت نتائجها النهائية في هذا المفهوم خلال العقود القليلة الماضية.

١- النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية: برجر آرثر إيرا: ترجمة: وفاء إبراهيم، ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، القاهرة، الطبعةالأولى:٢٠٠٣م، ص١٣.

٢- ينظر: النقد الثقافي: رايموند ويليامز نموذجا، صبري حافظ ، بحث منشور في مجلة البلاغة المقارنة الجامعة الأمريكية، العدد ٣٢ ، ٢٠١٢م، دار إلياس العصرية، القاهرة، ص ١٠. ومقدمة موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات: أندرو إدجار و بيتر سيدجويك ترجمة: هناء الجوهري ، المركز القومي للترجمة ٢٠١٤م.

كما صنفه الداعمون له في وطننا العربي فرعًا من فروع النقد النصوصي العام؛ ومن ثَمَّ فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية، وهو معنيٌّ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء. من حيث دور كل منهما في حساب المستهلك الثقافي الجمعي، وهو لذا ليس معنيًا بكشف الجماليات، كما هو شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي الجمالي، فكما أن لدينا نظريات في الجماليات فإن المطلوب إيجاد نظريات في القبحيات تمكننا من كشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي وللحس النقدي[1]. فهو نقد لا يُعنى ببنية النص اللغوية، بل يُعنى ببحث ونقد الظواهر السلبية في المجتمع، مثل: الكذب، والعنصرية، والاستبداد، وغيرها من الظواهر التى تشكل عائقًا نحو تطور المجتمع ورقيه، ويحاول إعادة تشكيل الثقافة المجتمعية ، واستبدال تلك الظواهر السلبية بظواهر وقيم عليا تدعو إلى الصدق والعدل والحرية.

ولا يقتصر التحليل الثقافي على النصوص الفصحية الجارية على سنن العرب، بل يتعامل مع كافة النصوص فصيحها أو غير ذلك، فلا غضاضة عندهم في تناول الأغاني الشعبية، والإعلانات، وأحاديث الحياة اليومية...إلخ؛ لأنه ينظر إليها باعتبارها منتجًا ثقافيًا يعكس القيم والمعايير المنتشرة في المجتمع.

وقد ادعى أنصار النقد الثقافي أن البلاغة العربية لم تعد قادرة على مواكبة التطورات الفكرية والثقافية في الوقت الراهن؛ لزعمهم أنها تقتصر في دراستها على القشرة الخارجية للنص، وأنها بمعزل عن السياقات الاجتماعية والثقافية ؛ لذا وجب استبدالها بالنقد الثقافي؛ لأنه هو القادر على تلبية احتياجاتهم في سبر أغوار النص للبحث عن الدلالات الثقافية والأيديولوجية العميقة التى تحتاج إلى الكشف

---

١ – ينظر:النقد الثقافي، مقدمة نظرية وقراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء / بيروت ٢٠٠٠. (الطبعة الثانية ٢٠٠١).: ٨٣ – ٨٤

والتحليل. وسوف يقف البحث وقفات تحليلية نقدية كاشفة عن صحة هذه الدعوى من عدمها.

ب- دعوى موت البلاغة: النشأة والتطور:

مرت هذه الدعوى بثلاث مراحل:

١- مرحلة الاستهانة بالتراث البلاغي:

٢- مرحلة الدعوة للتجديد بدعوى قصور البلاغة العربية:

٣- إعلان موت البلاغة العربية:

١- مرحلة الاستهانة بالتراث البلاغي:

لقد تعرَّض تراثنا البلاغي- وخاصة مصنفات المتأخرين بدءًا من السكاكي- لعديد من محاولات التشويه والاستهانة والاستخفاف، وكان السكاكي ومن تبع نهجه مقصدًا أساسيًا وهدفًا لكثير من تلك الهجمات؛ فقد وُصِفَت دراساتهم بالعقم والجفاف والجمود ، ورُميت مصنفاتهم بالتعقيد والغموض؛ ووصل الأمر في بعض الأحيان باتهام البلاغة العربية كلها بعدم الأصالة، فهي في نظر بعضهم سرقات من بلاغات الفرس والهند واليونان، ومن العجب العُجاب أن هذا التخرص وذاك التلفيق لم يكن من المستشرقين الذين يستهدفون الإسلام ولغته وثقافته وعلومه، ولو كان الأمر كذلك لكان الرد عليهم يسيرًا، ودحض افتراءاتهم سائغًا ميسورًا، لكن الأدهى والأمرّ أن جمهرتهم من أهل العربية، ومن أهل البلاغة خاصة، وقد انتشرت هذه الفرية الظالمة العجلى انتشار النار في الهشيم، وتقبلها طلاب العلم بقبول حسن، وصارت من مسلمات العلم، بل وأخذ جُل الأعلام المتصدرين للتأليف في البلاغة يرددون تلك الافتراءات دون تحقق أو تثبت، فها هو الدكتور بدوي طبانة يردد هذه الشائعات ويقول:" والواقع أنه لم يفسد البلاغة العربية أو البيان العربي مثل تمحيص السكاكي وتهذيبه ، وترتيبه الذي مجده به ابن خلدون... ولسنا نعرف السحر العجيب الذي سحر العلماء بكتاب السكاكي، فجعلهم ينسون أنفسهم، وينكرون

ملكاتهم؛ ليسيروا في ركاب السكاكي وفي فلك كتابه ، فجعلوه القطب الذي يدورون من حوله، والغاية التي يبممونها"[١].

كما ذكر الدكتور شوقي ضيف:" أن المفتاح تلخيص أشاع فيه السكاكي كثيرا من العسر والالتواء، بسبب ما عمد إليه من وضع الحدود والأقسام المتشعبة ، فإذا المباحث البلاغية تشبه غابة بل دغلا ملتفا لا يمكن سلوكه إلا بمصابيح من المنطق ومباحث المتكلمين والفلاسفة، وهي مصابيح ما تني توسل إشعاعات تخنق خلايا النضرة في الدغل الكثيف، وكثيرا ما تتراكم هذه الإشعاعات تراكما يحجب عنا تلك الخلايا الحية التي كنت نتمتع برؤيتها عند عبد القاهر والزمخشري، وإن لم يحجبها أفسد أنسجتها إفسادًا بما أدخل عليها من مواد غريبة"[٢].

ولم يكن هذا الاستخفاف بتراثنا البلاغي مقصورًا على أساتذة الجامعات المصرية فحسب، بل وجدنا في جامعة الأزهر من يصرح بهذا ويصدع به، ومن شواهد ذلك ما قاله الشيخ عبد المتعال الصعيدي عن العلامة سعد الدين التفتازاني، حيث قال:"وكان سعد الدين من علماء العجم الذين تأثروا بالسكاكي في طريقته التقريرية، وفي ضعف أسلوبه ؛ لضعف سليقته العربية، بل كان هو وأمثاله ممن أتى بعد السكاكي من علماء العجم أضعف منه ذوقا أدبيًا، وسليقةً عربية؛ فمضوا في الطريقة التقريرية إلى أن وصلوا إلى نهايتها في البعد عن الذوق الأدبي، ثم أخذوا ينشرونها هنا وهناك إلى أن غزت علماء العرب ، وغزت جميع العلوم من عربية ، إلى دينية ، إلى غيرها من العلوم. وصارت عنايتها بتقرير عبارات المتون أكثر من عنايتها بتقرير مسائل العلوم.ثم تَهَافتَ المتأخرون من علماء البلاغة على شرحَيْ سعد الدين علي التلخيص، يضعون عليهما الحاشية بعد الحاشية ، ويضعون على الحاشية التقرير بعد التقرير، وشُغف المدرسون بتلك الكتب في الجامع الأزهر

١- البيان العربي: د/ بدوي طبانة:٢٠٠، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

٢- البلاغة تطور وتاريخ: د/ شوقي ضيف:٢٩٦ ، دار المعارف ، مصر الطبعة الثانية (بدون تاريخ).

وغيره من الجامعات الإسلامية في الأقطار المختلفة ، يتعمقون في درسها إلى أقصى حدود التعمق، وينتقلون في درسها من المتن إلى الحاشية إلى التقرير، في استقصاء غريب، وتفنُّن في الفهم والبحث. ولو أن كل هذا في صميم مسائل البلاغة لهان الخَطْب ، لكن أكثره في بحوث خارجة عن المسائل، وفي أسلوب ركيك يُفْسِد ملكة البلاغة؛ فإذا كانت فيه فائدة قليلة؛ فإنها تضيع في هذا الخِضَمّ الذي لا فائدة فيه"(١) كما ذكر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي أن"السكاكي قد أمعن في الغوص بقواعد البلاغة إلى أعمق بحار العلوم العقلية من منطق وفلسفة ، وجرى في ذلك إلى غاية بعيدة المدى ، مترامية الأطراف ، كانت أولى الخطوات الواسعة بعد قدامة بن جعفر في النزول بالبلاغة إلى هذا الدرك الذي ترى عليه البلاغة الآن"[٢] هذا غيض من فيض، وقليل من كثير مما تم ترديده في الوسط البلاغي والنقدي مما يبرز حالة الاستهانة بتراثنا البلاغي والحط من قدر علمائنا العظام الذين أفنوا حياتهم في خدمة لغتنا العربية الشريفة.

وقد فعلت تلك الاستهانة بتراثنا وعلمائنا فعلها المشتط جيلا بعد جيل ، وكان لها أثر بالغ وصدى كبير، فلم يسلم تراثنا البلاغي من النقد اللوم على مر العصور دون تثبت أو تحقيق، وكأنها عدوى أصابت الدارسين .ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن النقد اللاذع والاستهانة الشديدة بتراثنا البلاغي في مرحلة المتأخرين قد فتح بابًا للاستهانة والاستخفاف بعلوم المتقدمين جملة، فنجد بعد ذلك مَن لم يتوقف بجرأته على السكاكي والسعد والمتأخرين فحسب ، بل تجاوز ذلك وطغى حتى ادعى أن بلاغة الإمام عبد القاهر ما هي إلا عجوز شمطاء ، أو أن الذي يلجأ

---

١ - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة / عبد المتعال الصعيدي: ١/٧- مكتبة الآداب ، الطبعة السابعة عشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢- ينظر: مقدمة تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي لكتاب الإيضاح للخطيب القزويني:١٩٢/٦، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٣م.

إلى البلاغة العربية القديمة كالمريض الذي يلجأ إلى حلاق القرية ليداويه ، معرضًا عن الطبيب الممارس المؤهل للعلاج!.

٢- مرحلة الدعوة للتجديد؛ بدعوى قصور البلاغة العربية:

لا شك أن التجديد والتطوير أمر مهم وضروري، ولا خلاف على ذلك، فكل شيء في الدنيا يخضع لناموس التطور وسنة التحول، ومن ذلك: العلوم والمعارف والثقافات والفنون، فهي تتطور تطورًا يلائم روح العصر، ويناسب ظروف أهلـــه، وما لم يستجب منها لسنن التطور وفقًا لمتطلبات عصره بان شذوذه ووضح جموده ، وظهر من أفراد العصر من ينادي بتطويره، ويدعو لتجديده، ويعمل على تحريكه ليمضي مع الحياة ويُعبر عن المجتمع، وتراثنا البلاغي من هذا الناموس التطوري الذي هو أمر طبعي، وشيء ضروري لاستمرار الحياة وبقاء الكون"[١] لكن يجـــب أن نضع نُصبَ أعيننا ونحن نبحث عن التجديد والتطوير الهدف الذي نشأت البلاغة من أجله، ونمت وازدهرت في رحابه، وهو البحث عن أســـرار إعجـــاز القـــرآن الكريم، فأي محاولة للتطوير لم تجعل القرآن أساسًا لها لم تحظ بالقبول والانتشار، وستظل نائية خارج الإطار الذي تدور فيه ثقافتنا العربية والإسلامية، فإذا رغبنا في بعث وإحياء بلاغتنا العربية الحبيبة فلا بد من ربطها بالنبع القرآني الفيَّاض ، فمنه خرجت وإليه تعود.

وقد سعى بعض المنتسبين للحقل البلاغي والنقدي نحـــو تطـــوير الـــدرس البلاغي واستبدال دراسته التقليدية التراثية القائمة على علوم: المعاني ، والبيـــان ، والبديع بداراسات جديدة مناسبة للعصر؛ لأنهم يرون أن البلاغة التراثية قد تكبلـــت بأغلال الفلسفة والمنطق، وتزاحمت فيها المصطلحات والتقسيمات، وليس أدل على ذلك من قول الدكتور أحمد مصطفى المراغي عن بلاغة المتأخرين:" لا أرى لهـــا

١- المدخل إلى دراسة البلاغة : د / فتحي فريد:٢ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨م.

وجهًا صحيحًا ولا مستندًا من رواية أو دراية "[١]. وقد قدَّم بعض محاولى التجديد مناهج جديدة لتدريس البلاغة العربية ، كالشيخ أمين الخولي ، والشيخ عبدالعزيز البشري، والأستاذ أحمد الشايب ، وأحمد حسن الزيات، والدكتور أحمد مصطفى المراغي ، والدكتور أحمد مطلوب، والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي والدكتور عبد العزيز شرف، كما شكلت وزارة المعارف عام ١٩٣٨م لجنة لإعداد منهج لتدريس البلاغة العربية من الأساتذة : طه حسين ، وأحمد أمين ، وعلي الجارم ، وإبراهيم مصطفى ، وعبد المجيد الشافعي ، ومحمد أبو بكر إبراهيم، وغيرهم ممن أسهم في هذا المجال، ولا شك في أن بعض هذه المحاولات كان بحقٍ تجديدًا وتطويرًا وسعيًا للنهوض والارتقاء، وكان التجديد نابعًا من تراثنا وروحنا وفطرتنا، لكن أغلب تلك المحاولات كان يرى ضرورة أن يكون التحديث من خلال دمج البلاغة العربية بالدراسات البلاغية الأوربية، والاستعانة بالمستجدات الأوربية كنظريات التواصل ، ومعطيات التداولية ، ومدارس التحليل اللغوي ، وكشوفات السيميائية وغير ذلك...، ولا شك أن هذا فيه تبديد لتراثنا، وتشويه لعلومنا، وتضييع لهويتنا؛ بدعوى التجديد والتطوير، والتثقيف والتهذيب.

٣- <u>إعلان موت البلاغة العربية:</u>

لا أنكر أن التطلع إلى إماتة البلاغة والرغبة في الإجهاز عليها قديم، وأن محاولات التخلص منها ودفنها حية، وإقامة سرادقات العزاء لها متجدد كل يوم، فلا يكاد يمر عام دون أن نجد من يناصبها العداء، ويصوب لها السهام، لكن، أنى لهم ذلك؟!

قد تضعف البلاغة أحياناً في بعض العصور عندما تواجه كثيرًا من التحديات، وتتصدى لعديد من التهم والشبهات، وقد تتأثر بالتحولات الثقافية والاجتماعية والتكنولوجية، لكنها ستظل حية حاضرة بشكلٍ متألق أزهر؛ لأن

١- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها: د/أحمد مصطفى المراغى: ١١١ ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠م.

البلاغة مرتبطة بالطبيعة الإنسانية، فالناس بطبيعهم يميلون إلى التعبير عن أفكارهم ومشاعرهم بأساليب بليغة مؤثرة، ويحتاجون للإقناع والتأثير والشعور بالجمال، ولا شك أن هذا هو جوهر البلاغة، ولن يتحقق ذلك إلا بتعلم البلاغة وتعليمها وممارستها.

ولعل من أبرز الذين أغاروا على البلاغة العربية، وأعلنوا- غير مرة- موتَها وعدم صلاحيتها في الوقت الراهن الدكتور صلاح فضل، فقد رماها بسيل من الادعاءات والاتهامات: كالبلاغة القديمة، والجامدة، وقاصرة النظر؛ لأنها لم تستطع اكتشاف النظم الفعالة، ولم تتجاوز ما هو قائم، ولم تستشف الآفاق الممكنة في عملية الخلق اللغوي المستمرة في الأدب[1]، كما يرى أن البلاغة العربية كانت معيارية وليست وصفية، وكل العلوم الآن تنحو لأن تكون وصفية وليست بقواعد منطقية مسبقة، كما يذهب إلى أن البلاغة كانت جزئية، وليست شاملة للنصوص الإبداعية، وبذلت جهدًا بالغًا في دراسة الخلايا التعبيرية من: تشبيه واستعارة وكناية ومجاز مرسل، ودراسة أشكال المعانى وتطورها، ودراسة أشكال البديع ، لكن ذلك كله كان من منظور جزئى لا يحيط بالبنية الكلية للأعمال الأدبية، ولا يحتضن دلالتها العميقة التى تتغير من جزء إلى آخر. وبناء على تلك النظرة قرر الدكتور صلاح فضل أن البلاغة قد قامت بوظيفتها على أكمل وجه فى عصرها، وأن علماءها لو قُدِّر لهم أن يحيوا بيننا الآن، لكانوا قد أمدوها بأسباب التطور والحياة[2]. ولم يقتصر نقده على ذلك فحسب، بل أغرق في النقد وشطط حينما

١- ينظر: نظرية البنائية في النقد الأدبي، د/ صلاح فضل: ٣٥٦ مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٢م.

٢ - جريدة الأهرام، العدد ٤٩٢٠٩ السنة ١٤٦، الأحد ٢١ من محرم ١٤٤٣ هـ ، ٢٩ أغسطس ٢٠٢١، حوار أجراه الصحفي: محمود القيعي مع الدكتور/ صلاح فضل ومجموعة من كبار النقاد، تحت عنوان: مطالب بتقريبها إلى الشباب وإمدادها بأسباب الحياة...البلاغة العربية.. أسئلة التجديد تحاصر الجمود، ويمكن الاطلاع عليه من خلال هذ الرابط: =

ادعى خلو البلاغة العربية من المحتوى الإنساني لمنظومة القيم الرفيعة، وذلك في قوله: "والخطأ الذي تسعى البلاغة إلى تفاديه هو الخطأ العقلي المنطقي؛ ولهذا فإن السكاكي يجعل المنطق والاستدلال لاحقا عليها ولا شأن لها بأنواع الخطأ الأخلاقي أو القصور الجمالي ... وهذه هي براعة الجدل الصوري الفارغ من المحتوى الإنساني لمنظومة القيم الرفيعة[١] ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يتمادى الدكتور صلاح فضل ويدعي أن البلاغة تقف حجر عثرة نحو التقدم والرقي، فيقول: "إن هذا الإدراك الواضح المنظم للجهد البلاغي الحديث لا ينبغي أن يختلط بالرغبة الوهمية في إحياء البلاغة القديمة، فلم يعد هذا ممكنا في ظل معطيات التطور العلمي والحضاري، وكلما عمدنا إلى البناء في الفضاء القديم اندثرت ملامحها السابقة، فالمكان لا يتسع لهذين النمطين المتحالفين معماريًا"[٢]، ولا يخفى ما في حديث الدكتور صلاح فضل من الجور والظلم للبلاغة العربية، فضلًا عن أن كل أحكامه عامة مطلقة تجافى المنهج العلمي الرصين، كما أن المقام ليس مقام دفع تلك الشبه، ولا نفي هذا الوهم والتلفيق.

ثم يأتى الغذامي ليعلن بكل وضوح احتراق البلاغة وموت النقد الأدبي ، وإحلال النقد الثقافي بديلًا منهجيًا عنهما، وذلك في قوله:" في تواريخ العلوم، تتكشف أسباب نهوض علم مكان علم آخر، أو تلاشي علم وتجمده، والقانون العام في ذلك

=https://gate.ahram.org.eg/daily/News/203860/7/821081/%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A9/%D9%85%D8%B7%D8%A7%D9%84%D8%A8-%D8%A8%D8%AA%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%A8%D9%87%D8%A7--%D8%A5%D9%84%D9%89-D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%A8%D8%A7%D8%A8-%D9%88%D8%A5%D9%85%D8%AF%D8%A7%D8%AF%D9%87%D8%A7-%D8%A8%D8%A3%D8%B3%D8%A8%D8%A7%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%8A%D8%A7%D8%A9.aspx

١ – بلاغة الخطاب وعلم النص: د صلاح فضل: ١٢٠، عالم المعرفة ، كتاب رقم ١٦٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت.

٢ – السابق: ١٢٥

أن العلم متى ما تشبع تشبعًا يبلغه حد النضج التام فإنه يصبح مهددًا ببلوغ سنه التقاعدية، ولا شك أن العلوم تتقاعد مثلما يتقاعد البشر، غير أن الفارق أن العلم لا يدرك سنه التقاعدي ولا يراه، ويحتاج إلى من يكشف له عن هذه اللحظة الحرجة في تاريخ المعرفة، ولقد شاع عن الشيخ أمين الخولي قوله عن البلاغة العربية بأنها: نضجت حتى احترقت وهذا رأي فيه صدق وبصيرة، ولكننا، مع هذا، مازلنا ندرس طلابنا في المدارس والجامعات مادة البلاغة بعلومها الثلاثة، ولا نعي أن ما ندرسه لهم هو علم لم يعد يصلح لشيء، فلا هو أداة نقدية صالحة للتوظيف، ولا هو أساس لمعرفة ذوقية أو تبصر جمالي، وإن كانت قديماً كذلك إلا أنها الآن لم تعد أساساً لتصور ولا لتذوق، ومن ذا يحتاج إلى رصد الكنايات والجناسات والطباقات في أي نص، ومن ذا يحتاج إليها لتذوق أي نص أو تعرف صيغه ودلالاته، ونحن في الجامعات ندرس طلابنا وطالباتنا كل ما هو نقيض لهذه البلاغة ومتجاوز لها، ولكننا لا نجرؤ على إلغاء مقررات البلاغة، وقد نظن أن إلغاءها سيكون بمثابة الانتحار المعرفي، أو التآمر ضد التراث، وضد ذائقة الأمة. تتصنم العلوم مثلما يتصنم الأشخاص حتى لتبلغ حد القداسةتتصنم العلوم مثلما يتصنم الأشخاص حتى لتبلغ حد القداسة، وأنا أرى أن النقد الأدبي كما نعهده، وبمدارسه القديمة والحديثة قد بلغ حد النضج، أو من اليأس حتى لم يعد بقادر على تحقيق متطلبات المتغير المعرفي والثقافي الضخم الذي تشهده الآن عالمياً، وعربياً."[1] ومن الملاحظ في كلام الغذامي السابق أنه قد أعلن في بدايته موت البلاغة؛ معتمدًا على نص للشيخ أمين الخولي، وكأنه يريد أن يقرر أن البلاغة قد هوت من زمن، وابتلعتها فوهة النسيان، ولا داعي لتذكرها الآن لأنها صارت علمًا ميتًا، لا جدوى من دراسته، ثم ثنَّى بموت النقد الأدبي، ولا شك أنه قد أقحم البلاغة في هذا الصراع لكي يصل من خلالها إلى القضاء على النقد الأدبي لأنها أصله ومآله. وسوف نناقش في الصفحات القادمة هذه الادعاءات بشيءٍ من التفصيل.

---

١ – نقد ثقافي أم نقد أدبي، د / عبد الله الغذامي و د/ عبد النبي اصطيف: ١٢ دار الفكر بدمشق، ١٤٢٥هـ –٢٠٠٤م.

المبحث الأول:

النقد الثقافي ودوافع التأسيس على أنقاض البلاغة

لا جدال في أن النقد الثقافي منجز غربي، تعود إرهاصاته المبكرة في أوروبا إلى القرن الثامن عشر الميلادي حسب تقدير أكثر الباحثين، غير أن سماته وخصائصه المنهجية والمعرفية لم تتضح إلا في تسعينيات القرن العشرين، حينما أصدر الباحث الأمريكي (فنسان. ب . ليتش) كتابه: (النقد الثقافي: نظرية الأدب لما بعد الحداثة) ويعد ليتش أول من أطلق مصطلح النقد الثقافي، واعتنى بدراسة النصوص في ضوء التاريخ والسوسيولوجيا والسياسة ومناهج النقد الأدبي، وتعامل معها من خلال رؤية ثقافية تستكشف كل ما هو غير جمالي، ثم انتشر النقد الثقافي بعد ذلك في جميع أنحاء أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وصار يُدرَّس في كثير من الجامعات، كما ظهرت مجلات علمية مختصة بقضاياه، نحو: (مجلة النقد الثقافي) التى صدرت من جامعة مينيسوتا بنيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية.

أما ما يخص المشهد العربي فقد ذهب كثير من الباحثين إلى أنه يمكننا أن نعد كثيرًا مما قدمه المثقفون العرب منذ منتصف القرن التاسع عشر في مجالات التاريخ، والنقد الأدبي، والاجتماع، والسياسة، وغيرها مما يتماس مع الثقافة ويُشكل نقدًا وتقويمًا لها – من قبيل النقد الثقافي بمعناه العام[١]، ويصدق هذا على ما كتبه طه حسين، والعقاد، ومالك بن نبي، وأدونيس، وزكي نجيب محمود، وأنور عبد المالك، وادوارد سعيد، وبرهان غليون، ومحمد عابد الجابري، وغيرهم ممن عُني بقضايا ثقافتنا العربية وسُبل النهوض بها.

---

١ – يراجع : دليل الناقد الأدبي: إضاءة لأكثر من سبعين تيارًا ومصطلحًا نقديًا معاصرًا: د/سعد البازعي ، و د/ميجان الرويلي: ص: ٣٠٩ المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢م.

ويجب علينا في هذا السياق ألا نتغافل منجزًا ثقافيًا بالغ الخطورة والتأثير، وهو كتاب: الاستشراق لإدوارد سعيد[1]،الذي يعد ركيزة أساسية وعملًا مفصليًا في التأسيس للنقد الثقافي، فقد تناول بالتحليل والنقد الخطاب الاستشراقي، وكشف عما يختلجه من أنساق مضمرة أسهمت في رسم صورة الشرق كما أرادها المستعمر في العقلية الغربية، كما طالب إدوارد سعيد في كتابه (العالم والنص والناقد)[2] بضرورة ربط النصوص بسياقاتها الثقافية والاجتماعية والسياسة التى نشأت في رحابها؛ لأنها ليست بمعزل عنها، بل متفاعلة ومنخرطة فيها، وقد عالج إدوارد سعيد تلك القضايا الشائكة تحت مسمى (النقد الدنيوي)، ولم يشر إلى مصطلح النقد الثقافي.

عبد الله الغذامي والتأسيس لنقد ثقافي عربي:

لا يجادل أحد في أن محاولة الدكتور عبد الله الغذامي[3] هي الأهم والأبرز في نشر النقد الثقافي عربيًا، وإدخاله إلى الساحة الفكرية العربية كمنهج نقدي ، فقد

---

١ – تُرجِمَ كتاب" الاستشراق" للعربية عدة مرات: الأولى لكمال أبو ديب ، وصدرت عن "مؤسسة الأبحاث العربية" في بيروت ١٩٨٠م ، بعنوان "الاستشراق – المعرفة ، السلطة ، الإنشاء" ، والثانية للدكتور محمد العناني ، وصدرت عن دار رؤية بالقاهرة عام ٢٠٠٦م بعنوان "الاستشراق – المفاهيم الغربية عن الشرق" ، والثالثة للدكتور محمد عصفور أستاذ الأدب الإنجليزي بالجامعة الأردنية ، عن دار الآداب بيروت ٢٠٢٢م.

٢ - ينظر : العالم والنص والناقد/ إدوارد سعيد، ترجمة : محمد عصفور، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٨م

٣– هو عبد الله بن محمد الغذّامي الشمري، أكاديمي وناقد أدبي وثقافي سعودي، وُلِدَ في عنيزة، من منطقة القصيم عام (١٩٤٦م)، حصل على درجة الدكتوراه من جامعة (اكستر) ببريطانيا، ويعمل الآن أستاذًا للنقد والنظرية في قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود بالرياض.

وله نتاج علمي كبير من أهمه:

- الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية، النادي الأدبي الثقافي، جدة ١٩٨٥، (الرياض ١٩٨٩، طبعة ثانية) و (دار سعاد الصباح، الكويت / القاهرة، ١٩٩٣ طبعة ثالثة) و (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧، طبعة رابعة). =

- = تشريح النص، مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٧.
- الصوت القديم الجديد، بحث في الجذور العربية لموسيقى الشعر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧، و (دار الأرض، الرياض ١٩٩١، طبعة ثانية) و (مؤسسة اليمامة الصحفية، كتاب الرياض، الرياض ١٩٩٩، طبعة ثالثة)
- الموقف من الحداثة، دار البلاد، جدة ١٩٨٧ (الرياض ١٩٩٢، طبعة ثانية).
- الكتابة ضد الكتابة، دار الآداب، بيروت ١٩٩١.
- ثقافة الأسئلة، مقالات في النقد والنظرية، النادي الأدبي الثقافي، جدة ١٩٩٢، و (دار سعاد الصباح، الكويت / القاهرة ١٩٩٣، طبعة ثانية.
- القصيدة والنص المضاد، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء ١٩٩٤.
- رحلة إلى جمهورية النظرية، مقاربات لقراءة وجه أمريكا الثقافي الشركة السعودية للأبحاث، جدة ١٩٩٤.
- المشاكلة والاختلاف، قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء ١٩٩٤.
- المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء ١٩٩٦ (طبعة ثانية ١٩٩٧ عن الدار نفسها).
- ثقافة الوهم، مقاربات عن المرأة واللغة والجسد، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء ١٩٩٨ (طبعة ثانية ٢٠٠٠).
- حكاية سحارة، حكايات وأكاذيب، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء ١٩٩٩.
- تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء ١٩٩٩.
- النقد الثقافي، مقدمة نظرية وقراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء / بيروت ٢٠٠٠. (الطبعة الثانية ٢٠٠١).
- حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء ٢٠٠٤.
- نقد ثقافي أم نقد أدبي (بالاشتراك مع عبد النبي اصطيف) دار الفكر، دمشق (حوارات لقرن جديد) ٢٠٠٤.
- من الخيمة إلى الوطن، دار علي العمير، جدة ٢٠٠٤. =

تبنى النقد الثقافي بمفهومه الغربي في كتابه الشهير:(النقد الثقافي : قراءة في الأنساق الثقافية العربية) فالنص عنده " لم يعد نصًا أدبيًا جماليًا فحسب، بل هو أيضًا حادثة ثقافية لا يُقرأ لذاته ولا لجماليته، وإنما يعامل بوصفه حامل نسق أو أنساق مضمرة يصعب رؤيتها بواسطة القراءة السطحية لأنها تتخفى خلف سحر الظاهر الجمالي. وبالتالي فمهمة القارئ/الناقد تكمن أساسًا في الوقوف على أنساق مضمرة مرتبطة بدلالات "مجازية كلية" وليس على نصوص ذات دلالات صريحة، كما يرى الغذامي أن النقد الأدبي قد أدى دوراً مهماً في الوقوف على (جماليات)

- = الثقافة التلفزيونية، سقوط النخبة وبروز الشعبي، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ٢٠٠٤.
- القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩
- الفقيه الفضائي، المركز الثقافي العربي،٢٠١١
- اليد واللسان، القراءة والأمية ورأسمالية الثقافة، المجلة العربية،٢٠١١
- الليبرالية الجديدة، أسئلة في الحرية والتفاوضية الثقافية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب ٢٠١٢.
- الجهنية: في لغة النساء وحكاياتهن، الانتشار العربي ٢٠١٢.
- ما بعد الصحوة: تحولات الخطاب من التفرد إلى التعدد. صدر عن المركز الثقافي العربي ٢٠١٥.
- ثقافة تويتر: حرية التعبير أو مسؤولية التعبير، المركز الثقافي العربي، ٢٠١٦.
- الجنوسة النسقية. صدر عن المركز الثقافي العربي ٢٠١٨.
- وهذا باب في التوريق (الجزء الأول)، المركز الثقافي العربي ٢٠١٨.
- السردية الحرجة: العقلانية أم الشعبوية. صدر عن المركز الثقافي العربي ٢٠١٩.
- العقل المؤمن / العقل الملحد: كيف لعقول البشر أن تؤمن أو تلحد. صدر عن العبيكان للنشر ٢٠٢٠.
- مآلات الفلسفة: من الفلسفة إلى النظرية. صدر عام ٢٠٢١.
- إشكالات النقد الثقافي: أسئلة في النظرية والتطبيق. صدر عن المركز الثقافي العربي ٢٠٢٣.

النصوص، وفي تدريبنا على تذوق الجمالي وتقبل الجميل النصوصي، ولكن النقد الأدبي مع هذا وعلى الرغم من هذا أو بسببه، أوقع نفسه وأوقعنا في حالة من العمى الثقافي التام عن العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي، وظلت العيوب النسقية تتنامى متوسلة بالجمالي الشعري والبلاغي، حتى صارت نموذجاً سلوكياً يتحكم فينا ذهنياً وعملياً، وحتى صارت نماذجنا الراقية – بلاغياً – هي مصادر الخلل النسقي. واستشهد لذلك بشعر أبي تمام والمتنبي وأدونيس ونزار قباني، فهم في نظره أمثلة على الجمالي الشعري، وأيضاً أمثلة على الخلل النسقي؛ لأن ما يتراءى لنا جمالياً وحداثياً في مقياس الدرس الأدبي هو رجعي ونسقي في مقياس النقد الثقافي[١]، وبما أن النقد الأدبي– حسب رؤية الغذامي– غير مؤهل لكشف هذا الخلل الثقافي فقد أعلن عن موت النقد الأدبي ، وإحلال النقد الثقافي محله ، وذلك في تونس في ندوة عن الشعر عقدت في١٩٩٧/٩/٢٢، ثم أخرج كتابه: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية في مطلع القرن الحادي والعشرين؛ ليؤسس من خلاله للنقد الثقافي في بيئتنا العربية، ويتبنى تطبيقه على البنى اللغوية في ثقافتنا العربية، من خلال الكشف عن الأنساق المضمرة داخل هذه الثقافة التي تخفي خلف خطابها البلاغي الجمالي قيمًا أخرى غير جمالية، معتمدًا على أن الجماليات الناشئة عن البلاغة ما هي إلا أدوات لطمس هذا المخبوء وإحكام ستره ودفنه؛ حتى تستمر التعمية الثقافية، وتظل الأنساق فعّالة من خلف هذا القناع.

وقد أشرت سابقًا إلى أن الغذامي قد أعلن عن احتراق البلاغة وموت النقد الأدبي ، وإحلال النقد الثقافي بديلًا منهجيًا عنهما[٢]؛ وقد علل لذلك بأن جمال البلاغة الظاهر على سطح النص إنما يضمر خلفه قبحًا، وقد عبر عن ذلك بقوله: "ولاشك أن البحث في علل الخطاب يتطلب منهجًا قادرًا على تشريح النصوص واستخراج الأنساق المضمرة ورصد حركتها. وكما هي الدلالة اللغوية المزدوجة لكلمة

١ – ينظر: النقد الثقافي: د/ عبد الله الغذامي: ٨:٧

٢ – ينظر البحث ص: ١٠٤١

(جميل) التي تعني (الشحم) مثلما تعني (الجمال) فإن في الثقافة أيضاً جمالاً من تحته شحم، وكما أن الشحم لذيذ وجذاب إلا أنه ضار وفتَّاك بالصحة البدنية، وكأنما لذته هي الواسطة والقناع لمضاره، وكذا هي الجماليات البلاغية تضمر أضرارها وقبحياتها، والحاجة إلى كشف ذلك تصبح هما نقدياً مشروعاً وضرورياً. والسؤال النقدي سيكون حينئذ عن المقروئية بوصفها أساساً للاستهلاك الثقافي، وعن سبب جماهيرية خطاب ما أو ظاهرة ما مما هو في زعمنا ليس نتيجة خالصة لجمال المقروء أو الظاهرة، ولا لفائدتها العملية، ولو كان الأمر كذلك لساد كل جميل، ولشاع كل نافع. كما أن السبب ليس في البساطة والسهولة وإلا لساد كل بسيط . إن وراء ذلك في عرفنا أسباباً ذات أبعاد نسقية، وهذه هي وظيفة النقد الثقافي"[1].

كما أوعز الغذامي إلى أمر خطير جدًا، وهو أن السلطة البلاغية الجمالية– حسب توجهه– تتجاهل كل مالا يندرج تحت تصنيف الجمالي، وتهتم اهتمامًا مفرطًا بكل ما هو أدبي جمالي بالمفهوم الرسمي للأدبي، في حين أنه يذهب إلى أن الجماهيري والثقافي يقع تحت تأثير ما هو غير رسمي، فالأغنية الشبابية والنكتة والإشاعات واللغة الرياضية والإعلامية، والدراما التلفزيونية، وما إلى ذلك، هو ما يؤثر فعلًا أكثر من قصيدة لأدونيس أو غيره من الشعراء الذين سَخَّر النقد جهده كله فيهم، غافلًا عن الخطابات الفاعلة لمجرد أنها ليست مما يحسب في حساب الراقي، كما تقرره المؤسسة الأدبية وشروطها الجمالية البلاغية. إضافة إلى أن النقد الأدبي والبلاغة قد التزما بالنظر إلى النص الأدبي بوصفه قيمة جمالية، يسعى دائمًا لكشف هذا البعد الجمالي، وتبرير أي فعل للنص مهما كان، تحت مبدإ الأصل الجمالي، مما جعل (الجمال) منتجًا بلاغيًا محتكرًا، وصار للجمالي شرط مؤسساتي يصنعه السيد الشاعر ويقوم الفعل النقدي بعمليات التسويق والتعميم. والغذامي يرفض هذا الالتزام المبدئي؛ لأنه يرى أنه قد حرم النقد من القدرة على معرفة عيوب الخطاب،

١ – النقد الثقافي: د/ عبد الله الغذامي:٨٤

ومن ملاحظة ألاعيب المؤسسة الثقافية وحيلها في خلق حالة من التدجين والترويض العقلي والذوقي لدى مستهلكي الثقافة، وما يسمى بالفنون الراقية، والأدب الرفيع[١]، وحاول في كتابه النقد الثقافي الكشف عن الأنساق وتعرية الخطابات المؤسساتية والتعرف على أساليبها في ترسيخ هيمنتها وفرض شروطها على الذائقة الحضارية للأمة.

كما أشار الغذامي إلى أن التصنيف والإقصاء الذي قررته المؤسسة النقدية – على ضوء مذهبه– لا يمكن لأحد رده على تعاقب الأجيال، فما اكتسب قيمة متعالية صار لا يُنظَر إليه إلا عبر قيمته الجمالية المتعالية. فهو جمالي بالضرورة وإذا ما أراد أحدٌ نقده فلا يجوز له أن يخرج عن شرطه الجمالي، مما عطل الحس النقدي الفعلي في الثقافة، وجعل الناقد حارسًا من حراس المؤسسة، ولم يتطور الوعي النقدي تبعاً لذلك لأن النقد سلَّم واستسلم لشروط المؤسسة التي أسهم الناقد في إيجادها والحفاظ عليها. وليس بعجيب أن الأوائل لم يستخدموا مصطلح (ناقد) استخداماً تصنيفياً، ولم يتسم به أحد منهم. كما أن المتأخرين حينما اتخذوا هذا المسمى لم يعطوه بعداً نقدياً متجاوزاً للشرط الجمالي المؤسساتي، ومن ثم ظل الفعل النقدي يدور حول دوائره النسقية ولم يتجه إلى كشف عيوب الخطاب، بما في ذلك عيوب المؤسسة النقدية ذاتها ودورها في تنميط أفعال الاستقبال والتذوق والتأويل، وإخضاع فعل القراءة لشروط المؤسسة وأحكامها، وما كان جميلاً في نظر الناقد القديم ظل جميلاً لدى الناقد الحديث، وليس من فارق إلا من حيث وجوه معالجة ذلك الجميل واستخراج تأويلات مختلفة له. وظل أبو تمام والمتنبي فحلين سابقين ولم نر ما أحدثاه في أنساقنا الثقافية من عيوب خطيرة هما وآخرون غيرهما، من مثل نزار قباني وأدونيس اللذين سنفاجأ إذا ما اكتشفنا كم هما رجعيان في حين أن المؤسسة النقدية تؤكد على تقدميتهما، خاصة تقدمية أدونيس التي يبلغ التسليم بها

١– ينظر: النقد الثقافي: د/ عبد الله الغذامي:١٥

حد القداسة، وينظلق الغذامي من ذلك التصور إلى النداء بوجوب التحرر من قيد التصور الرسمي المؤسساتي لمصلح أدبي وأدبية، بحيث يجب أن يُعاد النظر في أسئلة الجمالي وشروطه، وأنواع الخطابات التي تمثله هذا من جهة، ومن جهة أخرى لابد من الاتجاه إلى كشف عيوب الجمالي، والإفصاح عما هو قبحي في الخطاب، وكما أن لدينا نظريات في الجماليات فإنه لابد أن توجد نظريات في (القبحيات) أي في عيوب الجمالي وعلله، وهي نوع من علم العلل – كما في مصطلح الحديث الذي يبحث عن علل في المتن أو في السند أو فيهما معاً، وفي ذلك جهود ضخمة نحتاج إليها كمثال نقدي حي ومجرب[1].

١ – ينظر: النقد الثقافي: د/ عبد الله الغذامي: ٥٩

المبحث الثاني

دعوى موت البلاغة العربية – تحليل ونقد

لا جدال في أن النقد الثقافي منتج غربي، كان لنشأته ظروف خاصة عقب الحرب العالمية وبداية عصر النهضة الأوربية، فبعد أن تيقن الغربيون أن النقد الأدبي في زمن الحداثة وما بعدها كان وهمًا كبيرًا، وبعد أن أبصروا ما خَلّفه المنهج البنيوي من إشكاليات عديدة، وصرامة وانغلاق في التحليل اللغوي للنصوص، وإقصاء وتهميش لكافة الأبعاد السياقية، وبعد أن لاحظوا كيف صار النقد يأكل بعضه بعضًا، وكيف تأتى كل نظرية جديدة لتهدم ما شُيد قبلها من نظريات، فلا بناء، ولا تطوير، ولا ثوابت، بل تقلب وتغيير وشك وارتياب. في هذا الوقت أصبحت الفرصة سانحة في أوروبا لظهور النقد الثقافي كمحاولة جادة لتحرير النصوص من الانغلاق الّذي فُرِضَ عليها من قِبل المنهج البنيوي الذي أدى إلى قطع النص عن محيطه، فإعادة النص إلى محيطه الثقافي كان رغبة ملحة عندهم، والنقد الثقافي بمجالاته المتنوعة ووفرته المنهجية يلبى تلك الرغبات؛ لاستيعابه لمجالات متعددة: نحو نظرية الأدب، والعلوم الاجتماعية والإنسانية، وعلم الجمال...إلخ.

هذا ما يخص نشأة النقد الثقافي في أوروبا، ولا شك أن الوضع الثقافي والأدبي لأمتنا العربية غير متلائم مع الوضع الأوربي، وكذا النموذج المعرفي العربي مخالف للنموذج الغربي الأوربي من جوانب متعددة، ونظرًا لهذا التباين يجب على كل من يحاول استيراد النقد الثقافي ونقله لعالمنا العربي تنظيرًا وتطبيقًا، أن يراعي هذا الجانب المهم، وهذا ما لم نلمسه في صنيع الدكتور/ عبد الله الغذامي الذى تَبَنَّى نشر النقد الثقافي في وطننا العربي، والترويج له في ثقافتنا العربية.

وسوف أعرض في الصفحات الآتية بعضًا من الممارسات النقدية المبثوثة في تراثنا النقدي – بدءًا من العصر الجاهلي– التى تبرز الوعي العربي المبكر بالأنساق الثقافية والاجتماعية المتعددة.

العناية بالأنساق الثقافية والفكرية في تاريخ النقد العربي:

لم يغفل النقد الأدبي العربي يومًا ما عن الأنساق الثقافية والفكرية التى أشار إليها الدكتور عبد الله الغذامي، ولم تُعن البلاغة بالجوانب الجمالية والإبداعية في النص فحسب، بل وضعت نصب أعينها الموروث الثقافي والفكري للأمة العربية في ضوء سياقه التاريخي، فعندما أنكر النابغة الذبياني على حسان قوله:

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُحى ... وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما

وَلَدنا بَني العَنقاءِ وَابني مُحَرِّقٍ ... فَأَكرِم بِنا خالاً وَأَكرِم بِنا اِبنَما[1]

أنكر عليه لأنه خرج عن النسق الثقافي المتوارث الذي كان يحرص على المبالغة في الفخر، لأنه عبر بجمع القلة (الجفنات والأسياف) والمقام يقتضى التعبير بجمع الكثرة؛ لأن المقام مقام فخر ومدح يقتضى التكثير، كما أنكر عليه قوله:(يلمعن في الضحى) لأن الموروث الاجتماعي والثقافي يقرر أن الضيف أكثر طروقًا بالليل، كما انتقده في البيت الثاني لأنه افتخر بأبنائه مع أن النسق الثقافي العربي يقتضى أن يكون الفخر بالآباء والأجداد.

ولست في هذا المقام بصدد مناقشة صحة هذه الرواية، ولكنني أردت أن ألمح إلى أن الوعي الثقافي العربي له ذاكرة ممتدة حتى العصر الجاهلي. وأن هذا النقد لم يقف على حدود الجانب الجمالي ، ولم يتعام عن العيوب النسقية المختبئة تحت عباءة الجمالي – كما يذهب الدكتور عبد الله الغذامي–بل كان نقدًا شاملًا للجوانب الأدبية والجمالية والثقافية والاجتماعية.

كما تنبه كثير من النقاد القدماء إلى أهمية الحفاظ على العُرف الثقافي وعدم اختراقه أو تجاوزه، ومن شواهد ذلك نقد أكثرهم لقول أبي تمام:

١- البيتان من الطويل من قصيدة مطلعها: د أَلَم تَسأَلِ الرَبعَ الجَديدَ التَكَلُّما... بِمَدفَعِ أَشداخٍ فَبُرقَةِ أَظلَما، ديوان حسان بن ثابت: ٢١٥ ،شرحه وكتب هوامشه وقدم له الأستاذ عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت.

رقيق حواشي الحِلم لو أن حِلمه * بكفيك ما ماريتَ في أنه بُرْدُ**[١]

فقد تصدى له الآمدي بالنقد والتجريح، حيث قال:" والخطأ في هذا البيت ظاهر؛ لأني ما علمْتُ أحدا من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة، وإنما يوصف بالعظم والرجحان والثقل والرزانة ونحو ذلك"[٢]

فنقدُ الآمدي لهذا البيت إنما كان منشؤه تجاوز أبي تمام في وصف الحلم حينما وصفه بالرقة، وهذا لم يرد في ثقافتنا العربية، لا في جاهلية ولا بعد الإسلام، ثم أخذ يسرد الشواهد التي تصف الحلم بعكس وصف أبي تمام، فقد أورد عشرة من الشواهد التى تصف الحلم بالعظم والرزانة، ثم يعلق على تلك الشواهد بقوله:"ألا تراهم إذا ذمّوا الحلم كيف يصفونه بالخفة، فيقولون: خفيف الحلم، وقد خف حلمه وطاش حلمه"[(٣)]؛ ثم يذكر الآمدي بعد ذلك ستة شواهد تؤكد صحة هذا الوصف السلبي، ليتوصل إلى النتيجة التي قررها في قوله:"فهذه طريقة وصفهم للحلم، ولما مدحوه بالثقل والرزانة، ذمّوه بالطيش والخفة" ثم اختتم تعليقه على بيت أبي تمام بقول فيه ذم ولمز حيث قال: " وأبو تمام لا يجهل هذا من أوصاف الحلم، ويعلم أن الشعراء إليه تقصد، وإياه تعتمد، ولعله قد أورد مثله، ولكنه يريد أن يبتدع فيقع في الخطأ"[٤] فرغبة أبي تمام في الاستحداث والابتداع قد أوقعته في صدع العرف الثقافي المتوارث، الذي يشكل عنصرًا مهما في إنتاج النص الأدبي وتلقيه.

ولا أجد نفسي مبالغًا إن قلت إن وعي النقاد العرب بالجانب الثقافي بدأ مبكرًا جدًا في تاريخنا النقدي العربي، ومن ينقب في ذخائر تراثنا النقدي سيقع على ما

---

١ – من الطويل من قصيدة مصلعها: تَجَرَّع أَسىً قَد أَقفَرَ الجَرَعُ الفَردُ... وَدَع حِسيَ عَينٍ يَحتَلِب ماءَها الوَجدُ، ديوان أبي تمام:٣٤٤/١، دار صادر، بيروت.

٢ – الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري:الحسن بن بشر الآمدي:١٤٦/١ ، دار المعارف،٢٠٠٩م.

٣ – السابق، ١٤٥/١.

٤ – يراجع: الموازنة ١٤٥/١:١٤٧.

يقرر ذلك ويؤكده، فهذا ابن سلام الجمحي قد أقام كتابه (طبقات فحول الشعراء) على ركيزة أساسية من الوعي بثقافة أمتنا العربية، وليس أدل على ذلك من ذكره في مقدمة كتابه لعبارته الطنانة الرنانة: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم، والصناعات منها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفه الأذن ومنها ما تثقفه اليد ومنها ما يثقفه اللسان"[1]

وقد نجد من نقادنا الأوائل من يمنح الجانب الثقافي صلاحيات كبيرة وسلطة نافذة في الحكم على النصوص الأدبية، فهذا ابن طباطبا العلوي يقول:" فإذا اتّفَقَ لَك فِي أَشْعَار العَرَب الّتِي يُحْتَجُ بهَا تَشْبيهٌ لَا تَتَلَقّاه بقَبُولٍ، أَو حكايةٌ تَسْتَغْرِبُهَا فابْحَثْ عَنهُ ونَقِّر عَن معنَاه، فإنّك لَا تَعْدم أنْ تَجِدَ تَحْتهُ خَبِيئةً إِذا أَثَرْتَهَا عَرَفْتَ فَضْلَ القَومِ بهَا، وعلِمْتَ أَنّهم أَرَقُّ طبعا مِنْ أنْ يَلْفظوا بكلامٍ لَا مَعْنى تحتهُ. ورُبّما خَفِيَ عَلَيْكَ مَذْهَبُهم فِي سَنَنٍ يَسْتَعملُونَهَا بَينهم فِي حَالاتٍ يصفُونَهَا فِي أَشْعارهم فَلَا يُمكِنُك استنباطُ مَا تحتَ حكايَاتِهِمْ، ولَا يُفْهَم مثلُهَا إلّا سَمَاعا، فَإِذا وقَفتَ على مَا أَرَادُوهُ لَطُفَ مَوْقِعُ مَا تَسْمَعُهُ من ذَلِك عِنْد فَهْمَكَ"[2] فالبحث عن المرجعيات الاجتماعية والثقافية ضرورة نقدية لايمكن للناقد الاستغناء عنها أو تجاهلها.

كذلك لم يغفل السكاكي–وهو يقنن البلاغة ويضبط مصطلحاتها– عن الموروث الاجتماعي للعرب، فعلى سبيل المثال نجده عندما أراد أن يوضح معنى الالتفات والمراد منه، وكيف يكون الانتقال من أسلوب إلى آخر، قام بذكر صور متعددة من صور إكرام الضيف، وذلك واضح في قوله:" إن العرب يرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب يكون أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ باستدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك؛ أليس قرى الأضياف سجيتهم، ونحر العشار للضيف دأبهم وهجيراهم ... أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون فيه بين لون ولون، وطعم وطعم، ولا يحسنون قرى الأرواح، فلا يخالفون فيه بين

١ ـ طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي: ٣ ، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٨م.

٢– عيار الشعر: ابن طباطبا العلوي: ١٧ ، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠١٠م.

أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد"[١] كما علل السكاكي لتنوع الصور البيانية التى جادت بها قرائح الشعراء إنما مرجعه إلى البيئة التى يعيشون فيها، فهي تختلف بالطبع، واختلافها يؤدي إلى إشراق بعض الصور في خيالات بعض الشعراء، واحتجابها عن البعض الآخر، فنراه يقرر ذلك في قوله:"اختلفت الحال في ثبوت الصور في الخيالات ترتبا ووضوحًا، فكم من صور تتعانق في الخيال وهي في آخر ليست تتراءى، وكم صور لا تكاد تلوح في الخيال وهي في غيره نار على علم، وإن أحببت أن تستوضح ما يلوح به إليك فحدق إليه من جانب اختيارك، تلق كاتبا بتعديد قرطاس ومحبرة وقلم، ونجارا بتعديد منشار وقدوم وعتلة وآخر وآخر"[٢] فالسكاكي كان مدركًا لأثر البُعد الاجتماعي والثقافي في تنوع الصور البيانية والصيغ التركيبية لدى الشعراء.

كما أشار حازم القرطاجاني إلى أن علم البلاغة لا يقتصر على علم اللسان الجزئي، بل له آفاق رحبة ممتدة تتصل بعلوم شتى، وقد قرر ذلك في قوله: " فمن كان له أدنى بصيرة لم يتخالجه الشك في أن الصحيح ما ذكرته لاستناد ما قلته إلى علم اللسان الكلي الذي لا تتبين أصول علوم اللسان الجزئية ومباديه إلا فيه، ولكون علم اللسان الكلي منشأ على أصول منطقية وآراء فلسفية موسيقية وغير ذلك . فلذلك كان كلامنا في ذلك أهلا لأن يوثق به ويركن إليه"[٣]. وهكذا ظهر جليًا أن عناية نقادنا العرب القدماء لم تتوقف عنايتهم عند القشرة الخارجية للنصوص التي نُعنَى بالصورة الشكلية والبعد الجمالي فحسب، بل اتسعت لتشمل ما وراء ذلك من أنساق مضمرة، فكرية، وثقافية، واجتماعية...

---

١ – مفتاح العلوم: أبو يعقوب السكاكي: ٢٩٦ ، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٧م.

٢ – السابق: ١١١

٣– منهاج البلغاء وسراج الأدباء/ حازم القرطاجني:٢٤٤، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة:١٩٨٦م.

البلاغة والصراع بين النقدين: الأدبي والثقافي:

ظهر جليًا في المبحث السابق أثناء عرضي للنصوص التى انتخبتها من كتاب الغذامي للتدليل على موقفه أنه قد أقحم البلاغة في الصراع المحتدم بين النقد الأدبي وغريمه الثقافي، وكأنه قد اجتلبها في هذا النزال لمحاولة القضاء عليها مبكرًا، لما لها من أثر فعال في الشفاعة للأنساق الثقافية في الترسخ والاستقرار- حسب ما ادعاه-؛ كما أن البلاغة تُعد من أهم أدوات وركائز النقد الأدبي التى لم تنفصل عنه في أي وقت من الأوقات عبر تاريخه، فالبلاغة والنقد الأدبي يتداخلان بشكل كبير في دراسة النصوص الأدبية، ويشتركان في كثير من الأهداف الأساسية لهما، فكلاهما يهدف إلى فهم النصوص وتحليلها واستخلاص قيمها الفكرية والجمالية.

لذلك تعجل الغذامي في الإجهاز عليها مبكرًا في الصفحات الأولى من كتابه النقد الثقافي من خلال النص الذي نقله من الشيخ أمين الخولي عن البلاغة العربية بأنها نضجت حتى احترقت، ومن العجب العجاب أن الغذامي قد أسس بنيانه المنشود للنقد الثقافي على أنقاض البلاغة االعربية من خلال تلك العبارة المثيرة للجدل ،كنت أنتظر منه أن ينظر نظرة عميقة لهذه العبارة، يُعمِل فيها نقده الذي يدعو إليه، ويتفكر في وجوه التأويل التى تتحملها، ويبحث عن الأنساق المضمرة المخفية خلفها، ويتأمل الظروف الثقافية والاجتماعية التى قيلت فيها، لكنه لم يفعل ذلك، بل جعل هذه العبارة دستورًا له يرتكز عليه في طريقه نحو تقويض البلاغة وإعلان موتها.

مقالة الغذامي:(جمال البلاغة قبح) تحليل في البنية والمنهج:

رأى الغذامي أن البلاغة – رغم جمالها- قبيحة؛ لأن خطابها الجمالي يستر خلفه شيئًا آخر غير الجمالية، إذ ليست الجمالية إلا أداة تسويق وتمرير لهذا المخبوء، وتحت كل ما هو جمالي هناك شيء نسقي مضمر، ويعمل الجمالي عمل التعمية الثقافية لكي تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت قناع.

وقد أكد الغذامي غير مرة على أن العيوب النسقية المختبئة خلف الخطاب البلاغي الجميل ظلت تتنامى متوسلة ببريقه الزائف الخداع، حتى صارت نموذجًا سلوكيًا يتحكم فينا ذهنيًا وعمليًا، وحتى صارت نماذجنا الراقية – بلاغيًا– هي مصادر الخلل النسقي. واستشهد لذلك بشعر المتنبي الذي اتهمه بأنه شحاذ، كما وصف أبا تمام بأنه شاعر رجعي، ونزار قباني بالفحل الذي لا يرى أحدًا، وأدونيس بصاحب الخطاب السحلاني الاعقلاني، الذي يسعى لتأسيس حداثة رجعية. فهم في نظره أمثلة على الجمالي الشعري، وأيضاً أمثلة على الخلل النسقي؛ لأن ما يتراءى لنا جماليًا وحداثيًا في مقياس الدرس الأدبي هو رجعي ونسقي في مقياس النقد الثقافي[١].

وعبارة:(جمال البلاغة قبح) التى رددها الغذامي غير مرة، أصابتني بصدمة فكرية، لأن فهم هذه الجملة على حقيقتها دون تأويل سيكون فيه إساءة بالغة لجوهر البلاغة، الأمر الذي دفعني لتحليلها وتأملها بعمق، أُقلِبُها على كل وجه ممكن؛ لأبحث عن مسوغ للجمع بين هذين المتناقضين، الجمال الذي يرتبط بالبهاء والروعة، والقبح الذي يثير الاستهجان والاستنكار، كيف يجتمعان في هذه الجملة؟!

لا أنكر أن الخطاب الذي يتدبج بحلل البلاغة قد يكون في بعض الأحوال مشوهًا، وذلك إذا كانت الزينة اللفظية والجمال الشكلي هدفًا في حد ذاته على حساب المعنى، وهذا متحقق في بعض صورالبديع اللفظي الذي طغى فيه اللفظ على المعنى وسحق فيه الشكل المضمون، الأمر الذي يؤدي إلى صخب لفظي ورتابة وملل، وكذلك إذا استُخدِمَت البلاغة في الخداع والتضليل، كما كان يحدث من الكهان الذين اعتمدوا السجع ذريعة لإبهار الناس والتلاعب بعقولهم، لستر عجزهم عن تقديم دليل مقنع وبرهان ساطع. هذه استثناءت لا يمكن تعميمها على البلاغة الحقة التى يتجلى فيها التناغم البديع ببن اللفظ والمعنى، ويراعى فيها كافة السياقات والمقامات والأحوال.

---

١ – ينظر: النقد الثقافي/ د عبد الله الغذامي: ٨:٧

البلاغة العربية ليست مجرد وسيلة للتعبير، ولا ذريعة للخداع والتضليل، بل تاريخ عريق يعكس عبقرية اللغة، تاريخ من الجمال والجلال، مصدر مجد واعتزاز لأمتنا العربية يربط حاضرها بماضيها، ويرسخ قيمة ومكانة اللغة العربية بين لغات العالم.

وإذا تأملنا الطرح الفكري للغذامي نجد أنه يعيش حالة من الاضطراب والتناقض الثقافي والمعرفي، وليس أدل على ذلك من تماهيه مع الفكري الغربي في طور التنظير والتأسيس للنقد الثقافي في وطننا العربي ، أما عندما لجأ للتطبيق، وتورط في التحليل، وجد نفسه مسكوناً منذ مراحل تكوينه الأولى بمجموعة من العناصر الثقافية المستقرة التي خرجت من اللاوعي عند الاحتياج الملح إليها، فاستدعى ما كان مرتكزا في تكوينه المعرفي من المجاز والتورية وغيرها من المصلحات البلاغية، لكنه من خجله ألبسها ثوبا ثقافيًا ، فأضاف لها كلمة ثقافي أو ثقافية. وهذا بلا شك يشير إلى التناقض الصارخ الذي وقع فيه الغذامي، وقد وقع فيه قبله كل من تمرد على ثوابت ثقافتنا العربية والإسلامية، مثل الذين تمردوا على اللغة العربية الفصحى، ودعوا للعامية بديلًا عنها، نحو: محمد عثمان جلال، ولويس عوض، وأمين شميل، وسلامة موسى، كانوا في دعوتهم للعامية يكتبون بالفصحى، وهذا أمر مُضحِك حتى البكاء، وفيه دليل دامغ على حالة التناقض الثقافي والمعرفي، وإشارة واضحة إلى حالة الاستلاب الفكري والثقافي، فكل من يروج للنقد الثقافي في مجتمعنا العربي والإسلامي عندما يتحدث نظريًا تجده يردد ما يسمعه من دعوات الغربيين – في زمن ما بعد الحداثة– تلك الدعوات التى تسعى لهدم كل المرجعيات والثوابت، وقطع الصلات بالماضي، ومن ثَمَّ انعدمت عندهم كل المرجعيات على كل المستويات، فانتهت مرجعية الدلالة في تحليل الشعر وبقية الأجناس الأدبية، وتحدثوا عن تشظّي الدلالة ومن ثّمَّ بُعثرت ومُزِقت أوصالها، وشُحنَت بمفارقات وتناقضات لا حصر لها، وسقط النسق، وعمت الفوضى داخل البناء الأدبي.

خطاب المراوغة عند الغذامي:

من يُعمِل نظره في الخطاب النقدي للغذامي يتجلى له عددًا من الممارسات الخطيرة، من أهمها: المراوغة من أجل تبرير أحكامه على البلاغة العربية والنقد الأدبي ، ومن أهم مظاهر مراوغاته توجيهه للنقاش نحو ما يدعم رأيه ، من خلال انتقاء الشواهد والأدلة – الاستثنائية – التى تعزز وجهة نظره، وتُمكِن لتوجهه، وتجاهل الشواهد والأدلة الأخرى – السياق الأكبر– الذي ينقض رؤيته، ويبطل معتقده.

ومن شواهد ذلك اقتصاره في حديثه عن المتنبي على السلبيات دون الإشارة لأي إيجابيات، فقد اقتصر في وسم المتنبي على الشحاذة، وجعله رمزًا للذات المتضخمة، ورماه بالتناقض الفج بين مبادئه وممارساته... إلخ، وتناسى أنه يتحدث عن شاعر عظيم عبقري، ملأ شعره الدنيا وشغل الناس في كل زمان ومكان ، تناسى أنه يتحدث عن شاعر كان يُنسَب إليه الشعراء النابهون من كل الامم ، فهذا ابن هانئ الأندلسي أُطلِق عليه متنبي الغرب، وكذا الشاعر الهندي طاغور أُطلِق عليه متنبي الهند، وسعد الشيرازي متنبي الفرس، وغير ذلك مما يدل دلالة واضحة على مكانة أبي الطيب المتنبي بين الأمم والشعوب.

ومن يتمعن في سيرة المتنبي سيتيقن أنه لم يكن متسولًا ولا شحاذًا، بل كان على العكس من ذلك تمامًا ، فلم أعلم أحدًا من الشعراء عند لقائه الأول مع سيف الدولة الحمداني اشترط على إذا أنشده مديحه، لا ينشده إلا وهو قاعد ، وأنه لا يُكلّف تقبيل الأرض بين يديه– وعلى الرغم من تلك الشروط العجيبة التى خالفت كل التوقعات– دخل سيف الدولة تحت هذه الشروط "[١]، كما رفض المتنبي مدح الوزير المهلبي، والصاحب بن عباد، وابن حنزابة – وزير كافور– فعل المتنبي ذلك في وقت كان يتهافت فيه الشعراء على مدح قاضٍ من القضاة أو قائد عسكري.

---

١ – الصبح المنبي عن حيثية المتنبي / يوسف البديعي: ٧١ تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا وعبده زيادة عبده ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٣ ،

ومن تجليات الانتقاء التى اعتمد عليها الغذامي في خطابه النقـدي للمتنبـي: اتهامه بتضخم الـ(أنا) فقد أورد من شعره ما يدل على استفحاله وتضخم الأنـا عنده، مثل قوله:

أَنَا الذَي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِـي ... وَأَسْـمَعْتُ كَلِمَـاتِي مَـنْ بِـهِ صَـمَمُ
الخَيْلُ وَاللَيْلُ والبَيْـدَاءُ تَعْرِفُنِـي ... والسَيْفُ وَالرُمْحُ والقِرْطَاسُ وَالقَلَـمُ[1]

وقوله:

أَيَّ مَحَـلٍّ أَرتَقـي ... أَيَّ عَظـيمٍ أَتَّقـي
وَكُـلُّ مـا قَـد خَلَـقَ الـ ... لاهُ وَمـا لَـم يَخلُـقِ
مُحتَقَـرٌ فـي هِمَّتـي ... كَشَـعرَةٍ فـي مَفرِقـي[2]

وغير ذلك من النصوص العديدة التى بدا فيها المتنبي متعاظمًا شامخًا مولعًا بإطراء ذاته، لكن هذا الشموخ وتلك العظمة في قصيدة المدح عنده أعظم دليل للرد على الدكتور عبد الله الغذامي، حيث إن فخر المتنبي واعتـداده بنفسـه وتقاسـمه القصيدة بينه وبين ممدوحه فيه دليل واضح على عدم إسهامه في اختـراع الفحـل وصناعة الطاغية – على حد تعبير الغذامي– فالطاغية لا يرضى أن يشاركه مادحه في الإطراء والتقريظ .

كما قصر الغذامي المتنبي على المدح ، وتناسـى شـعره الملـئ بالحكمـة والمعاني الإنسانية الراقية، كيف تغافل الغذامي عن قول المتنبي:

إذا غامَرْتَ فـي شَـرَفٍ مَـرُومِ ... فَـلا تَقنَـعْ بمـا دونَ النّجـومِ

---

١ – البيتان من البسيط من قصيدة مطلعها: واحرَّ قَلباهُ مِمَّن قَلبُهُ شَبِمُ... وَمَن بِجِسـمي وَحـالي عِندَهُ سَقَمُ ، ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري: ٣٦٣/٣ ، ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه: مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصـطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى (١٣٥٥– ١٣٥٧هـ) ، (١٩٣٦ – ١٩٣٨ م).

٢ – من مجزوء الرجز، ديوان المتنبي: ٢١٢/٢

فطَعْمُ المَوْتِ في أمْرٍ حَقِيرٍ ... كطَعْمِ المَوْتِ في أمْرٍ عَظِيمِ[١]

وكيف تجاهل قول المتنبي:

مَنْ يَهُنْ يسْهُلِ الهوَانُ عليْهِ ... ما لجُرْحٍ بمَيّتٍ إيلامُ[٢]

بل كيف تناسى قول أبي الطيب:

إذا أنتَ أكرَمتَ الكَريمَ مَلَكتَهُ ... وَإن أنتَ أكرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَّدا[٣]

وكيف تلهى عن تلك الحكمة البالغة :

وَوَضعُ النَدى في مَوضِعِ السَيفِ بِالعُلا ... مُضِرٌّ كَوَضعِ السَيفِ في مَوضِعِ النَدى[٤]

وغير ذلك من شعر المتنبي الذي لم يشر إليه الغذامي. كان الأجدر به وهو في موضع النقد وإطلاق الأحكام أن يكون موضوعيًا، لكنه كان منحازًا لفكرته، يصطفى لها الشواهد التى تدعمها، ويغض الطرف عن كل ما يثير الغبار حولها، ويتلهى عن كل ما يفت في عضدها.

لكن العجب العجاب والأمر المدهش الذي لا أجد له تفسيرًا هو التناقض الشديد في موقف الدكتور الغذامي من المتنبي في الكتاب نفسه- النقد الثقافي- فتارة يصفه بالشحاذ العظيم، وتارة أخرى يصفه بصاحب الأنا المتضخمة، إذ كيف يكون شحاذًا وفي الوقت نفسه يكون أبيًا باسلًا عزيزًا؟! هذا فضلًا عن تضارب موقف الغذامي تجاه المتنبي على وجه العموم، فقد أثنى عليه ووصفه بقمة التميز والإبداع، وجعله في طبقة وحده، لا مثيل له، وذلك في كتابه:(المشاكلة والاختلاف قراءة في

---

١ – من الوافر، ديوان المتنبي:١٦٦/١.

٢ – من الخفيف، من قصيدة مطلعها: لا اِفتِخارٌ إلّا لِمَن لا يُضامُ... مُدرِكٍ أَو مُحارِبٍ لا يَنامُ، ديوان المتنبي:٣٩٧/٢.

٣ – من الطويل، من قصيدة مطلعها: لكُلِّ اِمرِئٍ مِن دَهرِهِ ما تَعَوَّدا... وَعادَةُ سَيفِ الدَولَةِ الطَعنُ في العِدا، ديوان المتنبي: ١٦٦/١.

٤ – من الطويل، من قصيدة مطلعها: لكُلِّ اِمرِئٍ مِن دَهرِهِ ما تَعَوَّدا... وَعادَةُ سَيفِ الدَولَةِ الطَعنُ في العِدا، ديوان المتنبي: ١٦٧/١.

النظرية وبحث في الشبيه المختلف) فقد أكد في هذا الكتاب غير مرة أن المتنبي شخصية نصوصية لا تنتسب إلى أي تقليد شعري سائد أو سالف، وهو شخصية خاصة، يقدم لنا رؤية شعرية جديدة تتمخض عن شخصية نصوصية فريدة ومتميزة ومختلفة، وكل ما فيها من تشابه فهو شبه يفضي إلى اختلاف[1]، وفي كتاب النقد الثقافي تجده يجعل المتنبي مصدرًا رئيسًا من مصادر الخلل النسقي وصناعة الطاغية، وكأنه لم يلتفت إلا إلى الأنساق المضمرة السلبية، سواء كانت حقيقة أو متوهمة، ويتغافل عن أي نسق إيجابي مضمر، ويتلهى عن طريقة المتنبي المتفردة في مدحه، ويتناسى معانيه المبتكرة الخالدة في الحكمة والمعاني الإنسانية الراقية.

ولا أستبعد أن يكون مدخل الغذامي لقراءة شعر المتنبي مدخلًا طبقيًا وعنصريًا، خاصة وأن الغذامي ابن البيئة الخليجية، الذي اعتاد أن يعيش عيشة السيد الذي يكون له أتباع يخدمونه من جنسيات متعددة مثل: الهنود، والبنغال، وبعض العرب، فالتركيبة الديموغرافية لدول الخليج – من حيث نمط الحياة، وانتشار العمالة الوافدة– قد شكلت رؤية المواطن السعودي للواقع، وهذا أمر وثيق الصلة بالأنساق المضمرة التى يتبناها النقد الثقافي ويدعو إلى العناية بها الغذامي. وقد يكون متابعته للفن المصري وتأثره به سببًا من أسباب اتهامه للمتنبي بالشحاذة! فقد ورد ذلك في مشهد من مشاهد فيلم (محاكمة علي بابا)، الفيلم الذي تم عرضه في يناير عام ١٩٨٧م، وكان من أهم مشاهده الحوار الذي دار بين الفنان يحيى الفخراني وابنه حول اتهام المتنبي وأبي تمام والبحتري بالتفاق والمدح للتكسب فقط. لا تتعجب أيها القارئ الكريم من حديثي؛ لأنني في غاية الدهشة من عدم إبصار الغذامي للحقيقة الكبرى التى يعرفها القاصي والداني عن المتنبي، فكل من قرأ شعر المتنبي قَرَّ في عقله ووجدانه أنه صاحب شخصية متفردة، وروح وثابة، وأنه رجل يعتد بنفسه وشعريته اعتدادًا لا نظير له؛ لأنه يرى نفسه أكبر وأعظم من كل

---

١ – ينظر: المشاكلة والاختلاف، قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف: د/ عبد الله الغذامي ١٣٠ المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

ممدوحيه؛ لما حباه الله من عبقرية شعرية، وشخصية قوية، وقدرة على استشراف المستقبل. كيف لا؟! وهو الشاعر الوحيد – من لدن المهلهل حتى عصرنا الحديث – الذي شغل الأدباء والنقاد على مر العصور، وليس أدل على ذلك من كثرة شراح ديوانه، فعددهم غير مسبوق في تاريخ الأدب كله، حتى العالمي منه، وكذلك المعارك النقدية التى دارت حول شعره بدءا من القرن الرابع حتى يومنا هذا، وقد صدق المتنبي حين قال:

أَنامُ مِلءَ جُفوني عَن شَوارِدِها * وَيَسهَرُ الخَلقُ جَرّاها وَيَختَصِمُ**[1]

ومن مساوئ الغذامي أيضًا حكمه الجرئ والجائر على الشعر العربي جملة أنه هو المسئول عن تأسيس النسق الفحولي السلبي وصناعة الطاغية، ولا شك أن هذا فيه تجرؤ على ثقافتنا العربية والإسلامية، واختزال لقيم أمتنا في مجموعة من الأنساق السلبية التى تم انتقاؤها بعناية من جمهرة الشعر العربي، حيث إنه لم يلتفت إلا إلى ما يدعم هذا التوجه السلبي، لم نجده يلتفت لحكمة زهير، ولا لحلم الحارث بن حلزة، ولا لزهد العتاهية، ولا للغزل العذري العفيف عند جميل بثينة وكثير عزة، ولا للشعر الكثير الذي يحمل القيم الحضارية والإنسانية الإيجابية مثل الشجاعة والمروؤة والكرم وحسن الجوار...إلخ...هو لم يلتفت إلا إلى الأنساق الثقافية السلبية التى تدعم وجهة نظره مثل الشحاذة والنفاق والأنا المتضخمة، وقد كشف عن هذا التوجه مبكرًا جدًا في مقدمة كتابه النقد الثقافي من خلال التساؤلات التى طرحها:" هل جنى الشعر العربي على الشخصية العربية ؟ هل هناك أنساق ثقافية تسربت من الشعر وبالشعر لتؤسس لسلوك غير إنساني وغير ديموقراطي، وكانت فكرة الفحل وفكرة النسق الشعري وراء ترسيخها ؟ ومن ثم كانت الثقافة، بما إن أهم ما فيها هو الشعر، وراء شعرنة الذات وشعرنة القيم؟ لقد آن الأوان لنبحث في العيوب النسقية للشخصية العربية المتشعرنة، والتي يحملها ديوان

١– البيتان من البسيط من قصيدة مطلعها: واحرَّ قَلباهُ مِمَّن قَلبُهُ شَبِمُ... وَمَن بِجِسمي وَحالي عِندَهُ سَقَمُ ، ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري: ٣/٣٦٣.

العرب، وتتجلى في سلوكنا الاجتماعي والثقافي بعامة"[1] تساؤلات تحمل في طياتها أحكامًا مسبقة غير معللة، تحاول أن تحاصر القارئ، وتوهمه أنه لا يوجد في ثقافتنا العربية سوى الأنساق السيئة السلبية، لا يوجد سوى المنافق والمخادع والشحاذ والطاغية، فالشعر عنده "ينطوي على عيوب نسقية خطيرة جدا، يزعم أنها كانت السبب وراء عيوب الشخصية العربية ذاتها، فشخصية الشحاذ والكذاب والمنافق والطماع، من جهةٍ وشخصية الفرد المتوحد فحل الفحول ذي الأنا المتضخمة النافية للآخر، من جهة أخرى، هي من السمات المترسخة في الخطاب الشعري، ومنه تسربت إلى الخطابات الأخرى، ومن ثم صارت نموذجاً سلوكياً ثقافياً يعاد إنتاجه بما أنه منغمس في الوجدان الثقافي[2]، ولا شك أن هذا تجاوز خطير لا يمكن السكوت عنه مطلقاً، وفيه اتهام شديد لشعرنا العربي وقيمنا العربية الأصيلة، ولو سلمنا بذلك لكانت حضارتنا العربية والإسلامية حضارة الفرد الأوحد المتسلط الذي يُهمش الجميع ويسحقهم، ومن ثّمَّ يُفرز لنا هذا المجتمعُ الشاعرَالكذابَ والمنافق الذي يتنازل عن مبادئه وقيمه من أجل الحصول على رضا حاكمه، وطمعًا في نيل القليل من متاع الدنيا الزائف الزائل .

وفي سبيل تأكيد فكرته لجأ الغذامي واعتصم بقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذم الشعر:" لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من أن يمتلئ شعراً" وعقب عليه بقوله: " وهذا أول موقف مضاد للشعر، إذ إن ثقافة العصر الجاهلي ما كانت لتقف ضد الشعر، مما يجعل السؤال المضاد للشعر سؤالا إسلاميًا من حيث المبدأ"[3] ولا شك أن هذا استدلال فاسد فيه كثير من التعسف والقسر، لأنه أورد هذا البيان النبوي كقاعدة مقررة لا استثناء عليها، وتجاهل ذكر سياقه التاريخي- الذي يعلمه جيدًا- فمعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل هذا

١ – النقد الثقافي الغذامي: ٧

٢ – ينظر: السابق: ٩٣

٣ – السابق نفسه: ٩٥

الكلام لتحقير شأن الشعر عامة، والتقليل من قدره، بل قاله في شأن الشعراء الذين تجرأوا على الدعوة الإسلامية زورًا وبهتانًا، فكان من الحق والإنصاف أن يشير الغذامي إلى السياق التاريخي الذي قيل فيه هذا البيان النبوي، لكنه لما قرَّ في وجدانه أن هذا الأمر لا يدعم مذهبه، بل سيكون على خلاف مراده، طوى عنه الذكر صفحًا، كذلك تجاهل وتناسى أحاديث كثيرة تمجد شأن الشعر وتزكيه، وتحث على حفظ الجيد منه وتعليمه، كقوله صلى الله عليه وسلم:"إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرا"، كما أغفل الغذامي تشجيع النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا حسان بن ثابت على قول الشعر للدفاع عن دين الله عز وجل، في قوله: " اهجهم وروح القدس معك" وكذلك قول النبي –صلى الله عليه وسلم– : "إن أخًا لكم لا يقول الرفث» يعني بذاك ابن رواحة، قال:

وفينا رَسُولُ اللهِ يتلو كِتابَه … إذا انشقَّ معروفٌ من الفجر ساطعُ

أرانا الهُدى بعْدَ العَمى فقلُوبُنا … به مُوقِنات أن ما قالَ واقِعُ

يبيتُ يُجافي جَنبه عن فِراشِه … إذا استثقلتْ بالكافرين المضاجعُ[١]

كما تجاهل الغذامي أيضًا آثارًا عديدة وردت عن الصحابة والتابعين في الحث على حفظ جيد الشعرالذي يهذب النفوس ويدعو لمكارم الأخلاق مثل قول سيدنا عمر بن الخطاب:" احفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن محاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها" هذا غيض من فيض، وقليل من كثير، ولو شئت لذكرت أكثر من خمسين حديثًا وأثرًا ينافى ما ذهب إليه الغذامي، لكني توقفت هنا على ذكر الأحاديث الصحيحة الواردة في صحيح الإمام البخارى التى توضح الجانب المقابل لموقف النبي صلى الله عليه وسلم من الشعر الذي لم يشر إليه الغذامي؛ لأنه كعادته لم يعتمد إلا على القراءة الانتقائية التعسفية التى تلوى عنق النصوص لإثبات مراده وتأكيد مذهبه.

---

١ – أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، في كتاب الأدب، باب هجاء المشركين، حديث رقم ٦١٥١.:جـ ٨ ، ص ٣٦، دار ابن كثير – لبنان، بيروت ٢٠١٨م

كما وجه الغذامي انتقادًا مجحفًا للشعر، وحَمَّله المسئولية الكاملة عن تشويه وإفساد حياتنا الإنسانية والثقافية، ووصفه بالجرثومة المتسترة بالجماليات التي ظلت تفعل فعلها وتفرز نماذجها جيلاً بعد جيل، وقد أفصح عن ذلك في قوله:"وكان" نحن كائنات شعرية ولاشك، غير أن هذا ليس خبرًا جميلاً كما ظللنا نعتقد، بل إن كتابنا هذا سيزعم أن ما اكتسبناه من السمات الشعرية قد طبع ذاتنا الثقافية والإنسانية بعيوب نسقية فادحة ما زلنا ننتجها ونعيد إنتاجها ونتحرك حسب شرطها، ولعلها هي المسؤولة عن كثير من عوائقنا الحضارية، لاسيما وأن الشعر هو الخطاب الذي احتكر مشروع التحديث عندنا؛ ولذا لن نفلح لأن الشعر ذاته متلبس تلبساً نسقياً لم نبذل جهداً كافياً لكشفه... ولو تمعنا في ديوان العرب بناء على مفهومنا حول الأنساق المضمرة لوجدنا أن الشعر كان هو المخزن الخطر لهذه الأنساق وهو الجرثومة المتسترة بالجماليات، والتي ظلت تفعل فعلها وتفرز نماذجها جيلاً بعد جيل ليس في الخطاب الشعري فحسب بل في كل التجليات الثقافية بدءاً من النثر الذي تشعرن منذ وقت مبكر، وكذا الخطاب الفكري والسياسي والتأليفي بما فيه النقدي، وكذلك في أنماط السلوك والقيم ولغة الذات مع نفسها ومع الآخر، لقد تشعرنت الأنساق وصرنا فعلاً الأمة الشاعرة واللغة الشاعرة، ولكن فرحنا وتباهينا بهذه الصفات ليس سوى خدعة نسقية لم نع ضررها"[1]. فقد جعل الغذامي الأمة العربية أمة شاعرة، وحَمَّل الشعر مسئولية تكوين العيوب الثقافية النسقية التى أفسدت الشحصية العربية، ولا شك أن الشعر ديوان العرب، وقد شكّل وحده الهوية اللغوية والفكرية للعرب في العصر الجاهلي، لكن الأمر تغيَّر بعد ظهور الإسلام، فقد تبدت مقومات أكثر أهمية وأعمق تأثيرًا في تشكيل الهوية الثقافية لأمتنا العربيّة عبر تاريخها الطويل، مثل القرآن الكريم وحديث النبي صلى الله عليه وسلم، حيث أصبح هناك تفاعلٌ وتآزرٌ بين النصوص الدينية والأدبية في تشكيل الهوية الثقافية والحضارية للأمة العربية. ولا أدرى كيف غفل الغذامي عن ذكر القرآن الكريم

١ ـ النقد الثقافي: الغذامي: ٨٧

كمقوم أساسي ومركزي في حياة العربي المسلم؟! فهو مصدر التشريع الأساسي، وركيزة الهُوية الدينية واللغوية والثقافية، وقد أثر في اللغة والأدب والفكر وشيَّد قيمًا حضارية وثقافية لا نظير لها، وكيف تجاهل ذكرالحديث النبوي الشريف الذي أسهم بشكل واضحٍ في تشكيل القاعدة الأخلاقية والاجتماعية للمجتمع العربي المسلم، وأصبح دليلًا عمليًا للسلوك اليومي والفكري والاجتماعي. فلا شك أن من مجموع هذه النصوص وغيرها قد شكلت قيم المجتمع وسلوكياته على مدار القرون السابقة، وليس كما يدعي الغذامي أن الشعر وحده هو الخطاب الذي احتكر مشروع التحديث، وهو الذي طبع ثقافتنا وإنسانيتنا بالعيوب الفادحة التى تعوق تقدمنا وارتقاءنا.

الخاتمة:

خلص البحث إلى عدد من النتائج، يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

١- يجب ألا يغيب عن وعينا ونحن نناقش قضايا النقد الثقافي أنه منجز غربي، كان لنشأته ظروف خاصة تتناسب مع المجتمع الغربي الأوربي، كما جاءت ممارساته وتطبيقاته تلبية لاحتياجات النموذج المعرفي الغربي في ذلك الحين، ولا شك أن الوضع الثقافي والأدبي لأمتنا العربية غير متماثل مع الوضع الأوربي، وكذا النموذج المعرفي الإسلامي العربي مغاير لنظيره الغربي الأوربي من جوانب متعددة، ونظرًا لهذا التباين يجب على كل من يحاول استيراد النقد الثقافي ونقله لعالمنا العربي تنظيرًا وتطبيقًا، أن يراعي هذه الفروق الجوهرية الدقيقة.

٢- كشف البحث عن عناية البلاغيين والنقاد القدماء بالأنساق الثقافية والفكرية للأمة العربية في ضوء سياقها التاريخي، فلم تقف عنايتهم على الجوانب الجمالية والإبداعية في النص فحسب- كما ادعى الغذامي ومن لف لفه- بل وضعت نصب أعينها الموروث الثقافي والفكري للأمة العربية.

٣- كشف البحث عن التناقض الشديد عند الغذامي بين الجانب النظري والجانب التطبيقي ، فهو على المستوى النظري تجده يتماهى مع الفكر الغربي، أما عندما يلجأ للتطبيق، ويتورط في التحليل، تلقاه يستدعى ما كان مرتكزا في تكوينه المعرفي من المجاز والتورية وغيرها من المصلحات البلاغية، لكنه من خجله ألبسها ثوبا ثقافيًا ، فأضاف إليها كلمة ثقافي أو ثقافية.

٤- دعوى موت البلاغة دعوى ساقطة، بدليل العناية التى تحظى بها في الستوات الأخيرة، فكل من يراقب المشهد الأكاديمي يدرك العناية الخاصة بالبلاغة العربية والدراسات الخاصة بها، وليس أدل على ذلك من إقامة المؤتمرات والندوات الدورية التى تُعقد لبحث قضايا البلاغة، ومن أحدث هذه المؤتمرات: : المؤتمر الدولي الاول (تأريخ البلاغة العربية مسارات ورؤى)

الذي أقامته كلية اللغة العربية في جامعة القاضي عياض عام ٢٠٢١م، والمؤتمر الدولي الثاني (البلاغة الجديدة: الأسئلة والرهانات) الذي أقامته الكلية نفسهاعام ٢٠٢٣م، ومؤتمر(البلاغة بين التأثيل التراثي ومقتضيات الدرس اللساني الحديث) الذي أقامه بيت اللسانيات بتركيا شهر فبراير عام ٢٠٢٤م... وغيرها من المؤتمرات التى تعقد لبحث قضايا البلاغة والتحديات التى تواجهها في ظل التحديات التكنولوجية والرقمية، وكذا انتشار المجلات العلمية المتخصصة في الدراسات البلاغية، مثل: مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ومجلة البلاغة والنقد الأدبي، ومجلة البلاغة المقارنة، ومجلة الجرجاني... وغيرها من المجلات تُعنى بالبلاغة وقضاياها بصفة خاصة.

٥- ناقش البحث مقالة الغذامي الشهيرة (جمال البلاغة قبح) وكشف عما فيها من اضطراب وتناقض ثقافي ومعرفي[١].

٦- لا يصلح النقد الثقافي أن يكون بديلًا منهجيًا للبلاغة العربية والنقد الأدبي؛ بل إنه لا يصلح أن يكون قراءة لغوية أو أدبية؛ لأن النقد الثقافي لا يبحث في بنية النص، إنما يبحث في البنى الثقافية والاجتماعية الكامنة خلف النصوص، والسلطة فيه للنسق المضمر لا للنص، كما أن النقد الثقافي لا يملك منهجًا نقديًا قائمًا بذاته ، بل هو نشاط نقدي يستعين بعدد من النظريات والنظم المعرفية حتى يبلغ غايته ومراده.

٧- لم تلتق البلاغة العربية بالنقد الثقافي يوما ما، ولن تلتقى؛ لأن مجالهما ليس متحدًا، فالبلاغة لم تُعن إلا بالنصوص الفصيحة الجارية على طرائق العرب ، أما النقد الثقافي فإنه يفسح المجال لكل النصوص فصيحها أو غير ذلك، فنجده يتناول بالتحليل الأغاني الشعبية والإعلانات وأحاديث الحياة اليومية؛ لأنه يرى أن كل هذه النصوص تحمل في طياتها قيمة ثقافية وفكرية تستحق الدراسة والتفسير.

[١] - ينظر البحث: ١٠٥٦.

٨- اتسمت قراءة الغذامي للتراث العربي بالانتقائية التى تخالف المنهج العلمي وتشذ عنه، ويبدو أنه لم يستطع التخلص من التفكيكية التى سيطرت على كثير من دراساته السابقة. وقد ألجأه ذلك إلى إصدار الأحكام الجريئة والجائرة على الشعر العربي جملة، حيث حَمَّله مسئولية تأسيس النسق الفحولي السلبي وصناعة الطاغية، كما اختزل قيم أمتنا العربية والإسلامية في مجموعة من الأنساق الثقافية السلبية التى تم انتقاؤها بعناية من جمهرة الشعر العربي، مثل الشحاذة والنفاق والأنا المتضخمة.

٩- زعم الغذامي أن الشعر وحده هو الذي شكّل الهوية اللغوية والفكرية للعرب، وهذا قول صحيح لدرجة كبيرة إن كنا نتحدث عن العصر الجاهلي فحسب، أما إذا كان الخكم عاما – وهو كذلك – فلا شك أن فيه قدرًا كبيرًا من التعسف والتجاهل لمقومات أكثر أهمية وأعمق تأثيرًا في تشكيل الهوية الثقافية لأمتنا العربيّة عبر تاريخها الطويل عقب ظهر الإسلام، مثل القرآن الكريم وحديث النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أصبح هناك تفاعل وتآزر بين النصوص الدينية والأدبية في تشكيل الهوية الثقافية والحضارية للأمة العربية.

١٠- دعوة الغذامي لتأسيس نظرية عربية للكشف عن القبحيات في الأدب العربي ما هي إلا تكرار لمطالب النقد الثقافي الغربي، دون مراعاة لاختلاف السياقات الثقافية والفكرية بين المجتمع العربي الغربي، حيث إن هذه الدعوة الغربية جاءت في وقت الانفتاح الذي حدث في مرحلة ما بعد الحداثة، حيث أصبحت الجماليات الجديدة تشمل القبح والتناقض بوصفهما تعبيرات إنسانية حقيقية، ولا شك في أن هذه التحولات الاجتماعية والثقافية التى تجاوزت حدود العقل لا وجود لها في ثقافتنا العربية، كما أنه يمكن التعامل مع القبح دون الحاجة إلى نظرية خاصة به.

التوصيات:

-أوصي بعمل خطة بحثية لمواجهة ما يمكن تسميته بـــ(البناء السلبي للثقافة العربية) أو(ثقافة هدم الموروثات) من أجل الحفاظ على تراثنـــا وثقافتنـــا العربيـــة والإسلامية.

-أوصي بالعناية بالبحث في (بلاغة الأنساق) من خلال مؤلفات – المرحوم خالد الذكر– الأستاذ الدكتور: إبراهيم الخولي الذي تميـــزت معالجاتـــه البلاغيـــة بدراسة الأنساق، والسياق، والمساق.

المصادر والمراجع:

١- الاستشراق، إدوارد سعيد ، وتم الرجوع لترجماته الثلاث : الأولى: للدكتور كمال أبو ديب ، وصدرت عن "مؤسسة الأبحاث العربية" في بيروت ١٩٨٠م ، بعنوان "الاستشراق – المعرفة ، السلطة ، الإنشاء" ، والثانية للدكتور محمد العناني ، وصدرت عن دار رؤية بالقاهرة عام ٢٠٠٦م بعنوان "الاستشراق – المفاهيم الغربية عن الشرق" ، والثالثة للدكتور محمد عصفور أستاذ الأدب الإنجليزي بالجامعة الأردنية ، عن دار الآداب بيروت ٢٠٢٢م.

٢- إشكالات النقد الثقافي: أسئلة في النظرية والتطبيق. صدر عن المركز الثقافي العربي ٢٠٢٣م.

٣- الإيضاح للخطيب القزويني، ت/ د:محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٣م.

٤- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة / عبد المتعال الصعيدي: مكتبة الآداب – الطبعة السابعة عشر: ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

٥- بلاغة الخطاب وعلم النص، د صلاح فضل، عالم المعرفة – كتاب رقم ١٦٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت

٦- البلاغة تطور وتاريخ د شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر الطبعة الثانية (بدون تاريخ).

٧- البيان العربي: د/ بدوي طبانة: – مكتبة الأنجلو المصرية– الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

٨- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها: د/أحمد مصطفى المراغى: مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٦٩ هـ – ١٩٥٠م.

٩- تأنيث القصيدة والقارئ المختلف/ د عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء ١٩٩٩م.

١٠- الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله صلى الله عليه وسلّم وسننه وأيامه، الشهير بصيح البخاري :دار ابن كثير – لبنان، بيروت ٢٠١٨م.

١١- الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية، النادي الأدبي الثقافي، جدة ١٩٨٥، (الرياض ١٩٨٩، طبعة ثانية) و (دار سعاد الصباح، الكويت / القاهرة، ١٩٩٣ طبعة ثالثة) و (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧، طبعة رابعة).

١٢- دليل الناقد الأدبي: إضاءة لأكثر من سبعين تيارًا ومصطلحًا نقديًا معاصرًا: د/سعد البازعي ، و د/ميجان الرويلي: المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢م.

١٣- ديوان أبي تمام، دار صادر، بيروت.

١٤- ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه: مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى (١٣٥٥ – ١٣٥٧ هـ) ، (١٩٣٦ – ١٩٣٨ م).

١٥- ديوان حسان بن ثابت،شرحه وكتب هوامشه وقدم له الأستاذ عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦- الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، يوسف البديعي ، تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا وعبده زيادة عبده ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٣.

١٧- طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي: دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٨م.

١٨- العالم والنص والناقد، إدوارد سعيد ، ترجمة : محمد عصفور، اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٨م.

١٩- عيار الشعر: محمد أحمد بن طباطبا العلوي، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠١٠م.
٢٠- المدخل إلى دراسة البلاغة، د : فتحي فريد، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨م
٢١- المشاكلة والاختلاف، قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف: د/ عبد الله الغذامي ، المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
٢٢- المشاكلة والاختلاف، قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء ١٩٩٤م.
٢٣- مفتاح العلوم: أبو يعقوب السكاكي ، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٧م.
٢٤- من الخيمة إلى الوطن، دار علي العمير، جدة ٢٠٠٤.
٢٥- منهاج البلغاء وسراج الأدباء/ حازم القرطاجني:دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة:١٩٨٦م.
٢٦- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري:الحسن بن بشر الآمدي: دار المعارف،٢٠٠٩م.
٢٧- موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات: أندرو إدجار و بيتر سيدجويكترجمة: هناء الجوهري ، المركز القومي للترجمة ٢٠١٤م.الموقف من الحداثة، دار البلاد، جدة ١٩٨٧ (الرياض ١٩٩٢، طبعة ثانية).
٢٨- نظرية البنائية في النقد الأدبي، د/ صلاح فضل: مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٢م.
٢٩- النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية: برجر آرثر إيرا: ترجمة: وفاء إبراهيم، ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر ، القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٣م.
٣٠- النقد الثقافي، مقدمة نظرية وقراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء / بيروت ٢٠٠٠. (الطبعة الثانية ٢٠٠١).

٣١- نقد ثقافي أم نقد أدبي، د / عبد الله الغذامي و د/ عبد النبي اصطيف: دار الفكر بدمشق، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م.

الصحف والمجلات:

١- جريدة الأهرام، العدد ٤٩٢٠٩ ، الأحد ٢١ من محرم ١٤٤٣ هـ - ٢٩ أغسطس ٢٠٢١.

٢- مجلة البلاغة المقارنة الجامعة الأمريكية، العدد ٣٢ ، ٢٠١٢م، دار إلياس العصرية، القاهرة.

فهـرس الموضـوعـات

م	الموضـوع	الصفحة
١-	الملخص	١٠٢٧
٢-	Abstract	١٠٢٨
٣-	مقدمة:	١٠٢٩
٤-	التمهيد: (مداخل تأسيسية)	١٠٣٣
٥-	أ- النقد الثقافي:(المفهوم والمطلح):	١٠٣٣
٦-	ب- دعوى موت البلاغة: النشأة والتطور:	١٠٣٥
٧-	المبحث الأول: النقد الثقافي ودوافع التأسيس على أنقاض البلاغة	١٠٤٣
٨-	المبحث الثاني: دعوى موت البلاغى العربية – تحليل ونقد	١٠٥١
٩-	الخاتمة:	١٠٦٨
١٠-	المصادر والمراجع:	١٠٧٢
١١-	فهـرس الموضـوعـات	١٠٧٦